
الرسالة

5 me Année, No. 198

بدل الاشتراك عن سنة

مص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات

٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة

تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi - 19 - 4 - 1937

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد العزيز رقم ٣٦

العتبة الخضراء — القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العـــدد ١٩٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٨ صفر سنة ١٣٥٦ — ١٩ أبريل سنة ١٩٣٧ » السنة الخامسة

فهرس العـــدد

حول مؤتمر الامتيازات

منطق الواقــع

مصر الآن أمام اثنتى عشرة دولة فى (مونترو) ؛ تزيف الادعاء بالقانون ، وتكفكف الغُلواء بالحزم ، وتكشف المغالطة بالحجة ، وتقول للذين ظلموها وظلموا العدل : هأنذى أمامكم وجها لوجه ، وعقلا لعقل ، ولسانا للسان ؛ أخاطبكم بلغاتكم كأننى منكم ، وأجادلكم بعلومكم كأننى فيكم ؛ فهل تجدوننى أقل منكم فقها لفلسفة التشريع ، وعلما بمدنية العدل ، وفهما لسياسة الحكم ؟ هاهم أولاء بعض أبنائى أوفدتهم اليكم يحملون كلمتى ويمثلون ارادتى ؛ فهل رأيتم أروع خطابا من النحاس ، وأبرع برهانا من مكرم ، وأقطع بيانا من ماهر ؟ أليسوا هم حجتى العليا على أنكم تدافعون عن نظام لا يجد مساغا من طبيعة الناس ، ولا مساكا من منطق الأشياء ؟

لماذا تخشون أن يكون أمثال هؤلاء قضاة فى ديارهم بين مجرميكم ، وهم يجرون مع أخياركم فى عنان ، ولا يتخلفون عن أقطابكم فى ميدان ؟

لماذا تأبون أن يتساوى الوطنى والأجنبى فى الحق والواجب ، وأنتم ترون هذا النهر المبارك يضفى عليكم النعمة ، ويميزكم على أبنائه فى القسمة ؟

* * *

ذلك ماتقوله مصر لخصومها (الممتازين) الذين احتشدوا

فى مونترو يفاوضونها فى تنظيم العدوان، ويعارضونها فى محو الأهانة. وهذا القول لاعيب فيه إلا اعتماده على الحق الذى زهق فى دول أوربا، واستناده إلى المنطق الذى اختنق فى كتب الفلاسفة. فلو أنه قيل على أسلوب الزمن الحاضر، وجرى على منهاج المنطق الحديث، لما قابله المكابرون إلا بالتصفيق. والمنطق الحديث منطق الفعل لا منطق القول. وإذا كان مدار المنطق الكلامى على القياس، فإن مدار المنطق العملى على الواقع؛ والواقع فى قانون الطبيعة له سلطان الأمر الموجود وقوة الشيء المحكوم به؛ والمفاوضة فيه تختلف عن المفاوضة فى النية المكتوبة والفكرة المقترحة.

كان بيننا وبين جيراننا فى المزرعة حد جرى عليه الخلاف فلم يتم، فاختلط الحق بالحق ودخل من ملكنا فى ملك الجار مقدار كبير. وفى الأسبوع الماضى ندبت الحكومة مهندساً يبين الحق المشتبه، ويعين الحد المجهول، فمسح الأرض، ورد المأخوذ، ودق الحديدة وحرر المحضر، وأمضاه الجيران وفيهم العمدة. وكان الحد بين مزرعتين، ولكن الخلاف بين قريتين، فاتفقنا نحن وهم على أن نقيم الحد فى اليوم التالى ونجعله مصفًى ومروًى بينهما طريق. ولكننا علمنا فى الليل أنهم طمعوا فيما تحت أيديهم فلا يودون أن ينزلوا عنه. وتعليل هذا التحول يسير على من عرف غرائز الناس وخبر طبائع الريف. وفى الصباح الباكر كانت القرية فريقين: فريق الفأس والعمل وقد ذهب إلى المزرعة، وفريق المنطق والكلام وقد ذهب إلى القرية العنيدة. وانعقد مجلس القريتين فى دار العمدة؛ ثم انطلقت الألسنة البليغة تتجاوب بالعواطف الشاعرة تجاوب البلابل فى أعشاش الربيع. وكانت قوافى الأغاريد ترن موسيقاها بألفاظ الصداقة والود والمصاهرة والمجاورة والقانون والحق، فتطرب الآذان، وتهتز القلوب، وتشرق الأوجه.

فلما انتهينا إلى أن هناك حداً يجب أن يقام، وحقاً يجب أن يُعطى، تكشر الوجه الضاحك، وتنكر الصوت الرخيم، وانتفخت لغاديد الشر، فتهور بالكلام وتهدد بالمعارضة؛ وكان فيهم رجل رشيد، فكان يملأ الدلو من حين إلى حين ويُفرغه على القوم فتقر الفورة ويهدأ الحديث. وفى فترة من تلك الفترات الساكنة، اقترح أن نجعل لجيراننا الطامعين أجلا متى حل وجب عليهم أن يردوا الحق من غير اعتراض ولا مطل. وارتاح القوم لهذا الحل لأنه يترك لهم العين ويأخذ منهم الأثر، ورضينا به نحن لأنه يحسم النزاع بين القريتين، ويذهب عن النفس المسالمة شعور الهزيمة

وكان الخلاف أشد ما كان على مدة الأجل فبدأت بشهر وانتهت بخمسة. وكان الذين وضعوا أيديهم على الحق بالباطل أبسط لساناً فى الرفض، وأصلب عوداً فى القبول؛ أما نحن والقانون والحكومة فكان (ارتكازنا) على خلاء.

كتبنا الاتفاق وأمضوه بعد وقفات طويلة على كل نص من نصوصه؛ ثم أخذنا نستعد لنشيد الختام فى تمجيد الوئام والسلام، لولا رسول أقبل من الغيط يعلن أن رجال الفأس والكريك لم ينتظروا نتيجة المؤتمر، فحفروا المصفى، وشقوا المروى، وأقاموا الطريق، وحرثوا الأرض، وأنجزوا فى ساعتين، ما لا ينجز فى يومين.

كان هذا الخبر أضخم الدلاء التى صبت على المؤتمر، فشدهنا نحن، وخجلوا هم، وتذكر الجيران الأعزة حينئذ عواطف المصاهرة والمجاورة فقالوا: هذا هو الحق! ذلك ملككم وما ينبغى لأحد أن ينازعكم فيه!!

* * *

كان فى قدرة مصر أن تتخذ سياسة الأمر الواقع، فتلغى بإرادتها المطلقة هذه المعرة التى ورثتها عن الترك كما يورث الزهرى الافرنجي عن الأب المريض. ولو أنها آثرت هذه الخطة لوجدت حجتها فى القانون لا فى القوة، ولكن مصر الكريمة المضيافة لاتزال تجرى على أعراق أبائها الميامين فلا ترفع اليد ما دام يغنيها اللسان

على أن قوة الحق المصرى، وقدرة المفاوض المصرى، جعلتا القانون الأعزل أرفع صوتاً من المدافع، وأبعد نفوذاً من القنابل. وأعجب العجب أن الأمم اللاتينية التى سايرت نهضتنا وعاشرت أمتنا قرناً وثلث قرن، كانت هى وحدها التى تجهل أن مصر دولة من دول البحر الأبيض لا أمة من أمم أفريقا، وأن لها ديناً سماوياً يهدى إلى الحق، وتشريعاً مدنياً يرمى إلى الخير، وخلقاً شرقياً يدعو إلى المحبة، وأن رعاياها كانوا قبل الامتيازات وبعدها يتقلبون فى خيرات النيل، ولا وزر لهم إلا أخلاق هذا الشعب النبيل

احمد حسن الزيات

على بك فوزى

للأستاذ أحمد أمين

لم يتجل لى وفاء المصرى وإخلاصه كما رأيته أول أمس فى جنازة أستاذى وصديق على بك فوزى . فقد استقبل النعش فى محطة مصر عدد كبير من أصدقائه وساروا فى مشهده يعزى بعضهم بعضا إذ أبى الفقيد أن يكون له ولد ولا مال ولا جاه ؛ فكان أول مشهد عظيم رأيته لله وحده وكان أنبل ما رأيت منظر احمد باشا شفيق وقد تقدمت به السن وصعب عليه السير يتحامل على صديق ، ويسير من المحطة إلى جامع الكخيا ، ثم أسلم عليه وأسأله هل تعرف الفقيد فيقول : لا لم أره فى حياته ؛ ولكنى سمعت بنبل أخلاقه فرأيت وفاء للفضيلة أن أسير فى جنازته .

***

رحمة الله عليه ، فقد كان أمة وحده ، ولم أر له نظيراً فى كل من عاشرت . ولئن كان أكثر الناس نسخاً متشابهة من كتاب تافه مطبوع ، فقد كان نسخة خطية من كتاب قيم نادر . متمدن على آخر طراز من طراز المدنية فى ملبسه وأناقته وآدابه ولباقته ، متصوف إلى آخر حدود التصوف فى زهادته واحتقاره للمال والجاه والمناصب ، وفوق ذلك كله فى روحانيته السامية .

لم يفخر فى حياته بنسب ؛ على أنه كان جديراً أن يفخر به لو وجد الفخار مدخلا إلى نفسه ، فقد كان جد أبيه المملوك الشارد الذى قفز بفرسه من القلعة ؛ وناهيك بعظمة المماليك أيام سطوتهم .

ولم يفخر بعلمه وهو الواسع العلم العميق التفكير ؛ يجيد العربية إجادة قل أن يكون له فيها نظير ؛ ويتكلم الانجليزية كأحد أبنائها ؛ ويحذق الفرنسية والألمانية والتركية . ثم لا ينظر إلى اللغات على أنها مقاصد بل على أنها وسائل للثقافة ، فاتخذ هذه اللغات كلها أداة يتعرف بها الثقافات المختلفة ويقف على أحسن ما ألف فيها ؛ هذا الى صحة فى النقد وقوة فى الملاحظة وشخصية بارزة لا تخضع لأى مؤلف مهما عظم . ومع هذا كله تجلس اليه إن لم تكن تعرفه فكأنه أمى غى جاهل بكل شىء ، فهو ذهب خالص غطى بقشرة من طين لا تعرفه حتى تحكه وتحكه وتصل إلى باطن نفسه ؛ ولا يكون ذلك إلا لتلاميذه وخلصائه ، وحتى مع هؤلاء يقدم اليك نتيجة معارفه الواسعة وتفكيره العميق وهو مختف وراء ذلك يحاول ألا يشعرك بنفسه ، وإنما يشعرك بالفكرة نفسها ، فكأن كلمة « أنا » لم تكن فى معجمه .

***

عرفته أول أمره أستاذاً لى بمدرسة القضاء يدرس لنا التاريخ الاسلامى ؛ وتطاير إلينا قبل قدومه أخبار منثورة عن تاريخ حياته . إنه تخرج فى مدرسة المعلمين ، ثم سافر فى بعثة الى انجلترا ، ثم عاد منها بعد أن نال إجازة من جامعتها ، وهى أوصاف لم نتحمس لها كثيراً ، فكنا قد شاهدنا بعض من سافروا إلى أوربا ورجعوا بشهاداتهم الضخمة وألقابهم العديدة وكانوا كالبندقة الفارغة : منظر ولا مخبر ، ورواء فى العين ، ولا شىء فى اليدين ؛ فقلنا لعله أحد أولئك الذين لم يكسبوا من أوربا إلا اعوجاجاً فى اللسان ورطانة فى الألفاظ وإنكاراً لعظمة أى شىء مصرى ، وعصبية لكل تافه أجنبى .

رحبسنا أنفاسنا عند قدومه نستطلع طلعته

دخل علينا رجل قصير القامة . يحاول أن يخفى قصره بطول طربوشه وارتفاع حذائه ، أسمر اللون فى وسامة ، واسع العينين فى خجل ، كبير الرأس فى عظمة .

يتأبط كتباً كثيرة العدد لا يتناسب حجمها مع حجمه بين عربية وإنجليزية ، ويأبى أن يحملها الفراش عنه كما اعتدنا أن نرى من غيره .

وأكبر ما راعنا منه أنه بدأ درسه بعبارة عربية فصيحة التزمها فى كل درسه ، وفى كل دروسه بعد ، وفى كل أحاديثه معنا فى الدرس ، لا أعرفه شذ عنها مرة واحدة ، فى طلاقة وعذوبة واستشهاد بالأدب العربى والشعر العربى ، مما لم أعرفه لأزهرى ولا لمدرس من دار العلوم . يجيد فهم عبارة الطبرى على صعوبتها ، وابن خلدون على عمقها ، والكتب الانجليزية العميقة ، ويوضح ذلك كله بصياغة شهية لذيذة ، ويطبعها كلها بالطابع العربى فلا تسمع لفظة انجليزية ، ولا تستعصى عليه عبارة يريد أن يترجمها من لغة أجنبية

ومما زادنا إعظاماً له أنه لم يكتف بالدرس بل اتصل أيضاً بنفوسنا، فكان يخرج من الدرس أحياناً إلى شرح حالة نفسية أو ظاهرة اجتماعية يصل بها إلى أعماق نفوسنا، وأخذنا بالنظام الشديد، وكان يقدسه كل التقديس، فيشمئز من الكلمة النابية ومن اللفظة تكتب منحرفة قليلا عن موضعها، ومن النكتة إن كان فيها قليل من الشذوذ.

ولا تسل عنه فى ورق الامتحان، فقد كان يصحح أوراقنا فى دقة غريبة، ويأتى بالأوراق مدونة فيها ملاحظاته فى اللفظ والمعنى والأسلوب والخطأ الإملائى والخطأ التاريخى، وينتقدنا انتقاداً لاذعاً لكن ظريفاً.

من أجل هذا كان الأستاذ المحبوب والأستاذ الجليل والأستاذ الظريف والأستاذ العالم.

لم تطل دراسته فى مدرسة القضاء، وانتقل إلى وظيفة إدارية. ولم يطلب الانتقال لرغبة فى مال فهو يحتقر المال، ولا فى جاه فهو يحتقر الجاه، ولا رغبة عن التعليم فهو يحب التعليم ويصارحنى أن أكبر غلطة ارتكبها أنه تحول من التعليم إلى الادارة، ولكنه كان شديداً، وكان عاطف بك ناظر المدرسة شديداً، وكان لكل شخصيته القوية، ولكل آراؤه فى سياسة الطلبة، فتصادما تصادماً نفسياً من غير أن ينبس أحدهما بكلمة؛ وكان أن خرج «على فوزى» من المدرسة آسفين عليه كل الأسف شاعرين أنه لا يمكن أن يعوض، وكان «عاطف» أول من حزن على خروجه بعد أن حاول كل محاولة فى استبقائه

كان حساساً إلى درجة لا تتصور. تجرحه الكلمة الخفيفة لا يشعر بها أحد، والاشارة القليلة تصدر من رئيسه فيظنها بالغة منتهى الشدة، والإيماءة المعتادة فتحز فى نفسه وتصل إلى أعماق قلبه.

فكيف يستطيع بعدُ أن يكون موظفاً؟ لقد تداول عليه وزراء عديدون لا أسميهم، كل منهم جرح نفسه جرحاً بل جروحاً. وأى الرؤساء يتحاشى حتى الهنات الهينات مع مرءوسيه؟ وأى الرؤساء يدرك مقدار السهام المسمومة التى يوجهها إلى نفس كنفس على «فوزى»، وهو لا يرى أنها سهام أصلا بل قد يظنها نوعا من الملاطفة؟ - لقد رآه وزير يكتب خطاباً بالانجليزية فأعجبته بلاغته فقال له: لعلك تحسن أن تكتب مثل هذا بالعربية! فما كان أشدها وقعاً فى نفسه.

ثم هو يعشق العدل المطلق الدقيق، ويؤلمه أشد الألم الظلم الخفيف. وكان كل يوم يرى تصرفات فى الوزارات لا تتفق والعدالة التى ينشدها: هذا يحابى المتملقين، وهذا ينصر الأجانب على المصريين، وهذا يمنح ترقيات وعلاوات لغير المستحقين

ثم ما هذا النظام السخيف للدرجات؟ فهذا موظف فى الدرجة الأولى وآخر فى الدرجة الثانية! إنه يفهم أن يبدأ الموظف بمرتب صغير يزيد على القدم والكفاية، ولكنه لا يفهم تقسيم الموظفين إلى طبقات يعلو بعضها بعضا، ويدل بها بعضهم على بعض

لا. لا. ثارت نفسه على كل ذلك، فى هدوء وسكون، ومن غير أن يشعر أحد من أصدقائه دبّر أمره وأعد عدته للخروج من الوظائف الحكومية، وألح فى طلب إحالته إلى المعاش، فكان له ذلك. ورضى بنحو خمسة وعشرين جنيها فى الشهر على ثمانين وما كان يتبعها من علاوات وترقيات وحسبان معاشات

***

بل ليست الوظيفة وحدها هي التى يجب الفرار منها، بل يجب الفرار أيضاً من مصر، فما مصر هذه التى يحكمها الأجنبى وتستسلم له؟ وما مصر التى يستمتع فيها صعاليك الأجانب بما لم يستمتع به سادة أهلها؟ وما مصر التى تجلس فى مقهى من مقاهيها فتشعر أن الرومى الذى يقدم لك القهوة خير منك وأعز منك، ويستطيع أن يحتقرك وأن ينكل بك ولا تستطيع أن تفعل به ما يفعل بك؟ وما مصر التى لم تستطع أن تكون غنية فى أطبائها وعلمائها وتجارها وصناعها ولم تزل عالة فى كل ذلك على غيرها؟ لابد إذن من الهرب من الوظيفة ومن مصر معا

خرج من مصر ساخطاً غاضباً آسفاً حزيناً، خرج هائما على وجهه يمثل دور جده. لقد كان جده المملوك الشارد، فكان هو الحر الشارد

خرج إلى أوربا هائما فى شمالها، ولكنه كان فيها مستوحشاً،

نعم إنه يتكلم لغاتها ويفهم مدنياتها ولكن ليس قومها قومه، لا دينها دينه، ولا روحانيتها روحانيته. ثم ألقى عصاه فى الأستانة عقب الحرب واطمأن إليها، فهى هى البلدة المستقلة بين ممالك البلاد الاسلامية؛ وهى هى التى لا تذلها الامتيازات الأجنبية؛ وهى التى يجد فيها غذاء روحه وعواطفه بمساجدها العظيمة ومآذنها التى تشق السحاب. من أجل هذا اختار السكن فيها، وفى الأحياء الوطنية لا الأجنبية، واتخذ مجلسه فى مقهى تركى بلدى تحت شجرة زيزفون بجوار حائط مسجد بايزيد

ثم حاول أصدقاؤه جهدهم أن يحولوه عن رأيه ويعدلوا به عن غربته، فذهبت محاولتهم عبثا. عرضوا عليه وظائف مختلفة الالوان كان آخرها مدير دار الكتب، فكان جوابه: متى عرفتم سبب خروجى من الوظيفة وسبب خروجى من مصر لم ترضوا هذا العرض؛ فالاصل قبل الفرع، والحرية مع الفقر خير من الذل مع الغنى

***

قد رزق عيناً يرى بها غير ما يرى جمهور الناس؛ فكثيراً ما كان يحتقر من يجله الناس، ويجل من يحتقره الناس، لأن له مقاييس فى التقدير تختلف عن مقاييس الناس. ليس فى مقاييسه اعتبار لثروة ولا جاه، ولا منظر، ولا حسب، لا نسب.

حتى مكانه العام الذى كان يختاره لمقابلة أصدقائه لا يختاره لوجاهته، وإنما يختاره لنظافته، ولان صاحبه مسلم، ولانه يتنفس فيه جواً شرقيا لا غربيا، ولأنه ليس فيه امتيازات أجنبية، وهكذا من اعتبارات متعددة لم أستطع أن أعرف منه إلا بعضها

ويفضل أن يزور حلاقا كان زميلا له فى المدرسة على أن يزور باشا من الباشوات أو من يعده الناس كبيراً من الكبراء

***

قد أعظمه فى عيوننا صغر الدنيا فى عينه؛ فليس للمال عنده إلا وظيفتان: قليله يتبلغ به ويسد حاجاته الضرورية، وكثيرة للمروءة. وأعرف له فى ذلك فصولا غاية فى السمو، فلقد كان حيناً يسكن فى أسرة أوربية عميدها فرنسى، وربة الدار ألمانية ولهما ابن وبنت. حتى إذا نشبت الحرب العظمى جند عميد الأسرة، فأحلت الاسرة فقيدنا محله على رأس المائدة.

وكان كثيراً ما يدور الجدال على المائدة فى نظريات الحرب وخصوصا الفتى والفتاة، فكان الفتى يذهب مذهب أبيه ويتعصب لفرنسا وحلفائها، والبنت تذهب مذهب أمها وتتعصب لألمانيا وحلفائها؛ ثم كان من الفتى أن طعن تركيا فى سمعتها وقيمتها، ولم يكن يعرف عصبية الفقيد لتركيا، فلم يعد على فوزى يطيق البقاء بعد فى البيت، ولكن ماذا يصنع ووفاؤه يقضى بمراعاة هذه الأسرة بعد غياب عميدها، وعصبيته التركية تأبى أن يسكن فى البيت بعد ما كان من الفتى؟ لا يحل هذا الاشكال إلا احتقار المال، فقد تظاهر بأنه يأخذ درسا على السيدة الألمانية ودفع ما كان يدفعه أيام سكناه لم ينقص منه شيئاً وإن قلل ذهابه بعد ذلك لأخذ الدرس

وكان منظره فى استانبول غريبا: يجلس فى مقهى عرفه البؤساء والمحتاجون فهو يمنحهم ما أمكنه وهو الفقير الذى لا دخل له إلا معاشه الخمسة والعشرون جنيها، ينفق منها ثلثها على نفسه وثلثيها على مروءته، وطويل أن نعد مآثره فى هذا الباب

أحب العزلة وأكثر التفكير، فهو فى بيته وحده، إذ لا زوجة له ولا ولد، وفى تروضه وحده غالبا؛ هو وحده فى أكثر أوقاته، صديقه الكتاب، ثم ضعفت أعصابه ففقد صداقة الكتاب أيضاً إلا نادراً، وكان تفكيره فى العالم حيناً وفى نفسه كثيراً

وهذه حالة تستتبع الوحشة وتستتبع التشاؤم، وتستتبع الحزن والانقباض، وكذلك كان شانه

غلب عليه الخجل فى غلو، والخجل — كما يقول بعض علماء النفس — سببه كثرة تفكير الإنسان فى نفسه، فهو إذا مشى ظن أن الناس كلهم ينظرون إليه وينقدون مشيته؛ وإذا تكلم ظن أن الناس كلهم ينصتون إليه وينقدون كلامه؛ وإذا تحرك أو سكن أو تنفس فالناس يعدون حركاته وسكناته وأنفاسه؛ فكان هذا الخلق فيه أكثر شقائه. وبلغت به الحالة أن كان فى آخر أيامه إذا جلس فى مقهى اختار مكانه وراء عمود، وإذا سكن فى «بنسيون» صحا قبل أن يصحو

الناس وعاد بعد أن ينام الناس حتى لا يراه الناس : وإذا عزم على الرياضة فليلا حتى تستره ظلمة الليل ، وإذا مشى فى الشارع ليلا اختار من الشوارع أحلاها من الناس

***

تملكه خلق الرحمة فظهر منه فى كل شيء : رحم الناس فخرج لهم عن ماله . ورحم المرأة فابى أن يتزوج ، ورحم الحيوان فعاش نباتيا ، وأخيراً رحم نفسه . وويل للإنسان إذا رحم نفسه وأشفق عليها ! إنه ليعذب فى ذلك عذابا لا يعذبه أحد . نعمة كبرى أن يرحم الإنسان غيره ، وشقوة كبرى أن يرحم الإنسان نفسه . فالرحمة استضعاف للمرحوم ، فاذا استضعف نفسه فهناك الألم وهناك الحسرة ، وهناك فقدان الثقة بالنفس ، وهناك انسحاب من الجهاد فى الحياة ، وهل الحياة إلا جهاد ؟

رحم الله « على فوزى » فقد عاش غريبا ، ومات غريبا ، وأخشى أن يبعث غريبا

احمد أمين

فى التاريخ السياسى

الدستور الهندى الجديد

هل يكون نذير ثورة قومية جديدة

لمؤرخ كبير

الهند الآن فى مفتتح عهد جديد من تاريخها قد يكون بدء استقرار وسكينة ، وقد يكون فاتحة مرحلة جديدة من النضال بين الوطنية الهندية وبريطانيا العظمى . والمسألة الهندية تعود فتشغل الأذهان فى الهند وفى انكلترا ، وتستغرق أعظم جانب من اهتمام السياسة البريطانية . ذلك أن دستور الهند الجديد قد بدىء تطبيقه منذ أول ابريل الجارى ، وهو الدستور الذى أقره البرلمان الانكليزى بعد مناقشات طويلة عنيفة ، وصدر فى يناير سنة ١٩٣٥ باسم « قانون حكومة الهند » Government of India Bill ، مؤلفاً من أربعمائة وإحدى وخمسين مادة ، وخمسة عشر ملحقا على أن يبدأ تطبيقه منذ أول ابريل سنة ١٩٣٧

وقد اقترن تطبيق الدستور الجديد بحوادث داخلية خطيرة . ذلك أن الانتخابات التشريعية أجريت طبقاً لنصوص الدستور الجديد فى شهر فبراير الماضى ، فى إحدى عشرة ولاية تضم مجالسها التشريعية ١٥٨٥ كرسياً ، فتقدم لها نحو خمسة آلاف مرشح ؛ هذا عدا المجالس التشريعية العليا التى تضم ٢٦٠ كرسيا ؛ وبلغ عدد الناخبين نحو ثلاثين مليونا منهم خمسة ملايين امرأة ؛ ففاز حزب المؤتمر الوطنى وهو أعظم الأحزاب الهندية وحزب الوطنية المتطرفة ، وزعيمه الباندت جواهرلال نهرو بالأغلبية المطلقة فى ست ولايات من الاحدى عشرة . وكان المفهوم أن الحكومة المحلية الجديدة تؤلف من الأغلبية البرلمانية على قاعدة المسئولية الوزارية طبقاً للدستور الجديد ؛ ولكن حزب المؤتمر رفض أن يضطلع بأعباء الحكم فى الولايات التى فاز فيها ، فلجأت الحكومة البريطانية إلى اختيار أعضاء الحكومات الجديدة بطريق التعيين حسبما نص عليه الدستور أيضا ؛ بيد أن هذا الاجراء لا يمكن ان يعتبر فى بداية العهد الجديد حلا موفقا ، بل ربما كان بالعكس نذير مرحلة جديدة من النضال بين الوطنية الهندية والسياسه البريطانية

وترجع هذه المقاطعة من جانب حزب المؤتمر ، حسبما صرح وزير الهند اللورد زتلاند فى مجلس اللوردات إلى ماطلبه حزب المؤتمر من ضمانات خاصة لتولى اعباء الحكم ؛ خلاصتها أن يتعهد الحاكم بأن يتبع مشورة وزرائه وألا يخالف القرارات الدستورية ، وألا يستعمل سلطته الخاصة فى التدخل أو الضغط على الوزارة ، وهى عهود أبى الحكام أن يقطعوها لحزب المؤتمر ـ وترتب على ذلك أن قرر الحزب التنحى عن قبول اعباء الحكم ، فخلق بهذا التنحى موقفا فى غاية الخطورة والحرج ؛ ويتأهب الحزب الآن ليخوض عن طريق المعارضة البرلمانية نضالا عنيفا لا يمكن التنبؤ بعواقبه

***

«الدستور الهندى الجديد هو أقصى مرحلة بلغتها السياسة

البريطانية فى تحقيق الأمانى الهندية فى سبيل الحكم الذاتى؛ وكان أول خطوة قطعتها السياسة البريطانية فى هذا السبيل فى سنة ١٩١٩، غداة الحرب الكبرى، حينما رأت أن تثيب الهند البريطانية عما قدمت لبريطانيا العظمى من جليل المعاونات فى الحرب الكبرى. ففى ديسمبر سنة ١٩١٩، استصدرت الحكومة البريطانية دستور الهند الجديد المعروف بدستور مونتاجو وشلمسفورد؛ والأول وزير الهند والثانى نائب الملك فى ذلك الحين؛ وبمقتضى هذا الدستور منحت الهند لأول مرة بعض الحقوق والمزايا الدستورية المحدودة؛ فألغى المجلس التشريعى الذى كان خاضعاً لرأى نائب الملك، وأنشئت مكانه هيئة تشريعية جديدة تضم هيئتين: الأولى مجلس الدولة Council of state والثانية الجمعية التشريعية Legislative Assembly، وتؤلف الأولى من ستين عضواً منهم ستة وعشرون معينون، والثانية من مائة وأربعة وأربعين عضواً منهم أربعون معينون؛ واختصت الحكومة المركزية بالنظر فى الشئون السياسية والمالية والدفاع الوطنى والاشراف على الامارات وقصرت مهمة الحكومات المحلية (حكومات الولايات) على معالجة الشئون الادارية؛ ونص فى الدستور الجديد على أنه مؤقت وأنه تمهيد لانشاء الحكم الذاتى، وأنه سيعاد النظر فيه بعد فترة انتقالية قدرت بعشرة أعوام

ولكن هذه المنحة الضئيلة كانت صدمة شديدة للأمانى الهندية، فاضطرمت الهند من أقصاها إلى أقصاها بفورة قوية من السخط، وظهر مهاتما غاندى فى الميدان يذكى ضرام الحركة الوطنية بدعوته الى المقاطعة السلبية والعصيان المدنى، وجازت الهند مرحلة عنيفة من الاضطراب؛ ولجأت السياسة البريطانية الى وسائل القمع المنظم. وفى سنة ١٩٢٨ بدأت اللجنة الدستورية أو لجنة الاصلاح الدستورى التى ألفت برياسة السير جون سيمون مهمتها فى درس المسألة الهندية، وكان تاليفها تطبيقاً لدستور مونتاجو وشلمفورد، اذ نص على اعادة النظر فيه بعد عشرة أعوام، وحددت مهمة اللجنة الجوهرية بما يأتى:

ان تبحث فى كيفية سير الادارة الحكومية، ونمو التعليم وتقدم النظم النيابية فى الهند البريطانية وما يتعلق بذلك من الشؤون، ثم التقرير عما اذا كان يرغب فى تطبيق مبدأ الحكومة الذاتية والى أى حد، أو ما اذا كان يجب توسيع او تعديل أو تقييد مرحلة الحكم الذاتى القائمة، ويدخل فى ذلك بحث ما اذا كان يرغب فى إنشاء قاعة تشريعية اخرى فى المجالس التشريعية المحلية. واستمرت اللجنة فى طوافها ودراستها بالهند مدى أشهر، وانقسم الرأى العام فى الهند ازاءها قسمين، فريق يؤيد التعاون معها، وفريق وهو الأغلبية يدعو الى مقاطعتها. وفى أواخر سنة ١٩٢٩ ألقى اللورد ايروين نائب الملك تصريحه المشهور بان الغاية التى تتوخاها الحكومة البريطانية من الاصلاح الدستورى هى الوصول بالهند الى مركز الأملاك المستقلة (نظام الدومنيون)؛ فبث هذا التصريح فى الحركة القومية روحاً جديداً، وأيقنت انها سائرة الى الظفر، ونزل غاندى الى ميدان النضال كرة أخرى، وقام بحملته الشهيرة فى سبيل العصيان المدنى، وعادت السياسة البريطانية الى خطة القمع العنف، وقبض على غاندى وآلاف عدة من أنصاره، ولكن الاضطراب بلغ حداً اضطرت معه السياسة البريطانية الى التراجع، فتفاوض نائب الملك مع غاندى، وأطلق سراح الزعيم الكبير، واتفق على أن يشهد مؤتمر الهند الذى أزمع عقده فى لندن لبحث المسألة الهندية وان تلغى حكومة الهند جميع اجراءات القمع التى اتخذتها

وفى أثناء ذلك صدر تقرير لجنة سيمون فى مجلد ضخم، وفيه بحوث ضافية عن أحوال الهند الاجتماعية والطائفية. وخلاصة رأى اللجنة هو أن تجربة الاصلاح الدستورى مدى الأعوام العشرة ليست كافية لتقرير الخطة الدستورية الملائمة، وان الشعب الهندى، نظراً لظروفه الجنسية والطائفية، وما يفرق بين عناصره من اختلافات عميقة فى الدين واللغة والتقاليد والعادات والخواص، ليس أهلاً للتمتع بحكومة ذاتية مسؤولة؛ وأما فيما يتعلق بالتوصيات، فقد أوصت اللجنة بعدة اصلاحات نظامية وادارية خلاصتها أن تعتبر الهند البريطانية دولة متحدة قوامها الولايات، وان تعدل حدود الأقاليم الحالية، وأن يمنح حق الانتخاب لبعض الطبقات بشروط معينة، وان يستبق المبدأ الطائفى فى توزيع الدوائر الانتخابية، وان تفصل ولاية بورما عن الهند لأنها تكون وحدة مستقلة، وبعض توصيات

ثانوية أخرى لأصلاح التعليم والنظم الادارية . وهكذا جاءت توصيات لجنة سيمون ضربة جديدة للأماني الهندية القومية ؛ بيد أن الحكومة البريطانية أشارت يومئذ الى أن توصيات اللجنة لا تخرج عن الآراء الاستشارية ، وان مسألة الهند برمتها ستبحث فى المؤتمر الخاص بذلك ؛ وعاون اللورد ايروين بتصريحه بان الحكومة البريطانية تبغى بالاصلاح الدستورى أن تصل بالهند الى مركز « الدومنيون » ، على تهدئة الرأى العام والتمهيد لعقد المؤتمر فى نوع من التفاهم والوئام

***

وفى اكتوبر سنة ١٩٣٠ عقد مؤتمر الهند المعروف بمؤتمر المائدة المستديرة فى لندن ، وشهده غاندى ممثلا للهند مع عدد كبير من الزعماء الهنود يمثلون مختلف الطوائف والاحزاب ، ولكن المؤتمر عقد فى جو من الاضطراب والخلاف ، وانشق ممثلو الهند على أنفسهم فى المسألة الطائفية ، فرأى غاندى أن يتمسك بالانتخاب المطلق ، ورأى المسلمون ان يحتفظوا بالحقوق والنسب الطائفية . ولما اشتد الجدل والخلاف ، وعجز المؤتمر عن الوصول الى اتفاق شامل ، أعلنت الحكومة البريطانية أنها ستتناول الأمر بيدها مادام الهنود أنفسهم لم يتفقوا

وهكذا استعادت الحكومة البريطانية حريتها فى العمل ، واتخذت تقرير لجنة سيمون ومقترحاتها أساسا لوضع الدستور الهندى الجديد ؛ وصدر قانون الهند الجديد فى يناير سنة ١٩٣٥ بعد مباحثات ومفاوضات شاقة بين الحكومة والأحزاب ، وبعد مناقشات عنيفة داخل البرلمان وخارجه ، وبدىء بتطبيقه فى الهند البريطانية منذ أول ابريل سنة ١٩٣٧ حسبما نص فيه ؛ فغدت الهند دولة اتحادية ، واستقلت ولاية بورما بشئونها ، وأجريت الانتخابات الأولى طبقا للدستور الجديد حسبما قدمنا

وقد شرح نائب الملك اللورد لنلثجو منذ كان رئيسا للجنة الهند قواعد الدستور الجديد فى بيان رسمى جاء فيه : « يقضى النظام الحالى بان تشرف الحكومة المركزية على أعمال الحكومات المحلية وتراقبها . ولكن الدستور الجديد يرفع هذا الاشراف ، وتغدو الحكومات المحلية مستقلة فى معظم شئونها ، ويتمتع السكان بحكوماتهم المسئولة . أما الحكومة المركزية الجديدة فسوف تغدو حكومة اتحادية

« بيد أن الحكومة المركزية تحتفظ بالنظر فى مسائل الدفاع عن البلاد وفى مسائل السياسة الخارجية ، وليس لوزرائها أن ينصحوها فى هذه الشئون . كذلك يعتبر كل حاكم ولاية مسئولا عن حفظ الأمن والنظام فى ولايته ، وله الحق فى أن يتخذ ما يجب من الاجراءات الضرورية دون رأى وزرائه

« وسيتلقى حاكم الولاية التعليمات مباشرة من وزير الهند ، كما يتلقى التعليمات من الحكومة المركزية . وهكذا نستطيع أن نقول ان الولايات الهندية ستحكم طبقا لآراء الوزراء الهنود المسئولين أمام البرلمانات المنتخبة ، ماعدا بعض مسائل خاصة تبقى خاضعة لإشراف البرلمان الانكليزى »

والآن يطبق الدستور الجديد فى ظروف دقيقة ويقف حزب المؤتمر الوطنى بعد ظفره بالأغلبية البرلمانية المطلقة فى الولايات الست موقف المعارضة . ولقد أعلن زعيم الحزب الباندت نهرو قبيل بدء الانتخابات ان حزبه يعارض الدستور الجديد منذ البداية ، وانه يخوض الانتخابات لا لكى يتعاون مع الحكومة ، ولكن لكى يستعين على محاربتها بالأغلبية البرلمانية ؛ وقد نفذ الحزب وعيده فأبى أن يضطلع بأعباء الحكم فى الولايات الست لأنه لم يحصل على الضمانات المطلوبة ، واضطرت السلطة التنفيذية أن تقيم حكومات من عندها ؛ وبذا يشل تطبيق الدستور الجديد منذ الساعة الأولى . والمعارضة تقوى كل يوم وتشتد ؛ فماذا تزمع السياسة البريطانية أن تفعل ؟ ان السياسة البريطانية لابد أن تجد لها مخرجا من هذا المأزق سواء بالتفاهم والمفاوضة ، أو بالمضى فى تجاهل المعارضة وتحديها ؛ بيد أنها سوف تؤثر خطة اللين بلا ريب ؛ وقد رأت السياسة البريطانية ان تقف فى تحقيق الأمانى الهندية فى سبيل الحكم الذاتى عند هذا الحد المتواضع بعد أن لوحت للهند ابان اضطرام الحركة الوطنية ، بامنية الاستقلال الذاتى . أما اليوم وقد خبت الحركة الوطنية ، وسرى اليها التفرق والوهن ، فان الهند لا تستطيع أن تطمح الى نيل المزيد دون أن تخوض مرحلة جديدة من النضال

« مؤرخ »

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

— ٦ —

قد يكون أنصار المادية المفرطة معذورين فى زعمهم أن ليس ثمت إلا الجسم وأجهزته والمخ وآثاره، فانهم يرجعون الظواهر العقلية على اختلافها إلى مصدر ثابت ومنبع معين. كما أن المثاليين الغلاة يتفادون بعض الصعوبات حين يذهبون إلى أن النفس وحدها هى الحقيقة، وما وراءها صور وأوهام فان هؤلاء وهؤلاء لا يعترفون إلا باصل واحد ماديا كان أو روحياً يبنون عليه تفسيراتهم وحلولهم. أما من يقولون بالجسم والنفس، بالمادى والروحى، بالثنائية على العموم، فانهم يصطدمون بعقبة لم يجدوا السبيل إلى تذليلها. وكيف يمكن ربط المختلف والتوفيق بين المتنافر وضم أمرين من طبيعتين متغايرتين أحدهما إلى الآخر؟ لهذا كانت الصلة بين الجسم والنفس عقدة العقد ومشكل المشاكل فى كل مراحل التاريخ

فقديما نرى أفلاطون، وهو أكبر ممثل للثنائية لدى اليونان، مضطرباً وغامضاً إزاء هذه المشكلة، فيقول حينا إن النفس متميزة كل التميز من الجسم وانها الانسان على الحقيقة، ويظن حيناً آخر أنهما على اتصال وثيق وبينهما عراك دائم، فالجسم يصرف النفس عن الفكر ويجلب عليها آلاما كثيرة بميوله وأهوائه، وهى من جهة أخرى تحاربه وتجدّ فى الخلاص منه، ولكن كيف يتم هذا التفاعل ويلتقى الجسم بالنفس ويؤثر كل منهما فى الآخر؟ هذا ما لم يجب عليه أفلاطون. ولعل أرسطو قد حاول التخلص من هذا المأزق حين ذهب إلى أن النفس صورة للجسم؛ والصورة والمادة متصلان ومتداخلان بحيث يكونان شيئاً واحداً. بيد أن هذا الحل غامض كذلك ولا يخطو بنا إلى الأمام كثيراً. ومع هذا فقد قدر له نجاح كبير فى القرون الوسطى؛ فان أغلب الفلاسفة المدرسيين يزعمون أن النفس صورة للجسم فى الوقت الذى يقررون فيه أنها جوهر روحى ذو شخصية مستقلة، وهذا تناقض مكشوف

وفى التاريخ الحديث يعيدها ديكارت جذعة، ويثير هذا الموضوع فى شكل حاد، ويقول بجوهرية الجسم والنفس معاً مميزاً الأول بالحيز والثانية بالتفكير؛ وهذه هى الثنائية الأفلاطونية فى أجلى مظهر. ولكن عبثا حاول ربط هذين الجوهرين أو إيجاد علاقة بينهما. ثم طمع أتباعه فى أن يتلافوا هذا النقص فلم يكونوا أعظم منه خطأ. وربما كانت فكرة التناسق الأزلى التى قال بها ليبتنز هى أشهر محاولة فى هذا الباب، فهو يعتقد أن الجسم والنفس نسقا أزلا بحيث يتفقان وإن صار كل منهما فى طريق خاصة؛ وخضوع الأول للقوانين السببية لا يحول دونه، والارتباط بالأخيرة التى تخضع لقوانين الفانية. وما أشبههما بساعتين محكمتى الصنع تلتقيان فى قياس الزمن، وإن كانتا تبينانه بأشكال مختلفة. تصوير جميل ومهارة فى التوفيق، شان ليبتنز فى كل فلسفته؛ غير أنه فى الواقع توفيق صورى وربط خيالى، فان مؤداه أن لا صلة بين الجسم والنفس، أو أن الصلة بينهما أنهما لا يتعارضان ولا يتعاكسان

لم يغفل ابن سينا هذه المشكلة ولم يتردد فى حلها وتوضيحها، وكيف يغفلها وهو من أنصار الروحية والثنائية؟ وقد سبق لنا أن لخصنا البراهين العديدة التى يستدل بها على جوهرية النفس وروحانيتها. وفى رأيه أن الجسم والنفس متصلان اتصالا وثيقا ومتعاونان دون انقطاع. فلولا النفس ما كان الجسم، فانها مصدر حياته والمدبرة لأمره والمنظمة لقواه. ولولا الجسم ما كانت النفس، فان تهيؤه لقبولها شرط لوجودها، وتخصصه بها مبدأ وحدتها واستقلالها؛ ولا يمكن أن توجد نفس إلا أن وجدت المادة الجسمية المعدة لها! فهى منذ نشأتها تواقة إلى الجسم ومتعلقة به ومخلوقة لأجله. وفى أدائها لمهامها الكثيرة تستخدمه وتعول عليه. ويكفى أن نشير إلى التفكير الذى هو عملها الخاص فانه لا يتم إلا أن أزقتها الحواس بآثارها (١). وواضح أن العقلى ذو دخل كبير فى الجسمى، فرب فكرة هيجت الجسم وأحدثت فيه انفعالات كثيرة،

(١) ابن سينا، الشفاء، ج ١، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ : النجاة، ٢٩٧ - ٢٩٩ .

وللجسمي أيضاً أثر على العقلي ، فقد تنتج الحركة فكرة ويبعث اعتدال المزاج على الغبطة والسرور[١] . يقول ابن سينا : « انظر انك اذا استشعرت جانب الله وفكرت في جبروته كيف يقشعر جلدك ويقف شعرك ، وهذه الانفعالات والملكات قد تكون أقوى وقد تكون أضعف ، ولولا هذه الهيئات ما كانت نفس بعض الناس بحسب العادة أسرع إلى التهتك أو الاستشاطة غضباً من نفس بعض[٢] » .

فهناك علاقة إذن بين الجسم والنفس وتأثير متبادل ؛ وهذا قدر يتفق عليه كل أنصار المذهب الروحي ولا يعز عليهم إثباته ، ولكن المشكلة هي : كيف يتم هذا التأثير وكيف يلتقي الجسمي بالنفسي ؟ لكي يجيب ابن سينا على هذا السؤال يلجأ إلى طبه مستمداً منه بعض الملاحظات الفسيولوجية ، فيوزع أولا قوى النفس المختلفة على أجزاء الرأس ويعد لكل واحدة منها مقراً معينا . فالحس المشترك مثلا متمركز في اول التجويف المقدم للدماغ ، والمصورة في آخر هذا التجويف ، والوهم في نهاية التجويف الأوسط ، والحافظة في التجويف المؤخر[٣] . ويلاحظ ثانيا أنه لابد لهذه القوى من خدم تنفذ أوامرها ومطايا تحمل آثارها . ومطيتها جميعا جسم لطيف روحاني منتشر في الجسم ، يخرج من القلب ويمتد إلى سائر الأطراف ، ولا أدل على هذا من أنه إذا تصلب أو انسدت مسالكه انقطعت الحركة والإحساس . وهذا الجسم هو الروح التي تمد الأعضاء بالحرارة الضرورية للحياة وتربط القوى النفسية بعضها ببعض ، فكأن القلب الجزء الرئيسي الذي يلتقي فيه الروحي بالمادي والعقلي بالجسمي . حقا إن الدماغ يشرف على الجهاز العصبي ويتقبل الاحساسات ويدفع إلى الحركة ، ولكنه هو أيضا خاضع للقلب ومحتاج إلى الحرارة العضوية التي يبعث بها أليه[٤]

هذه الفسيولوجيا تصعد إلى جالينوس وأبقراط وتمت بنسب ألى ارسطو . فان تركيز قوى النفس في مناطق خاصة من الدماغ أمر عنى به جالينوس ، ثم أخذه عنه العرب في شيء من التصرف ، فنراه لدى الفارابي كما نراه لدى ابن سينا وأغلب الأطباء والفلاسفة المسلمين . والروح التي تربط القوى النفسية باجزاء الجسم وتنفذ أوامرها ليست شيئا آخر سوى الأبنيما (Pneuma) التي قال بها اليونانيون الأول . وذلك أن ديوجين الأبولوني يزعم أن التفكير إنما يتولد من ذلك الهواء الذي يسبح في أوردة الجسم وشرايينه[١] . ويقول هيرافليط إن التنفس يغذى النفس بالهواء الذي لولاه ما كانت حياة ولا عقل[٢] ومن هنا تولدت نظرية الأبنيما التي لعبت دوراً هاماً في الفسيولوجيا وعلم النفس القديم .

ومعظم أطباء الأغريق لا يرون في الابنيما مصدر القوة والحرارة الانسانية فقط ، بل يعدونها منبع التفكير ، وكثيراً ما يخلطون بينها و بين النفس . والرواقيون بوجه خاص وإن قالوا بجسميتها يصفونها بكل الصفات الروحية . وقد قدر لهذه الفكرة أن تحيا إلى أن استكشفت الدورة الدموية التي قامت على أنقاضها . ويظهر أن قسطا بن لوقا البعلبكي والمترجم المشهور المتوفى سنة ٨٣٥ ميلادية هو أول من أدخلها في العالم العربي ، فقد كتب بحثاً صغيراً فرق فيه بين النفس والروح[٣] فبينما الأولى في رأيه جوهر روحي بسيط غير قابل للفناء اذا بالثانية جسم لطيف يشرف على أعمالنا العضوية والعقلية ، واذا ما توقف عن الحركة كان الموت . فالروح إذن أداة النفس وبواسطتها يتحرك الجسم ويعد للادراك ، وبذا استطاع قسطا أن يوفق بين الابنيما التي يعول عليها الأطباء والنفس التي ينادي بها الفلاسفة ، وقد سار على سنته من جاء بعده من مفكري الاسلام .

وأما الصلة بين القلب والدماغ وأثرهما في الظواهر النفسية فتلك نقطة خلاف بين أرسطو وجالينوس . ففي حين أن الفيلسوف يرى أن القلب هو مركز القوى النفسية الرئيسية نجد الطبيب يصعد بذلك الى الرأس ويعتبره المهيمن على كل الحياة العقلية . وابن سينا ، وان كانت منزلته الطبية لا تقل عن درجته الفلسفية ، لا يتردد في أن ينتصر لأرسطو . ويصرح ، على أي أساس لا أدري ، أن الفلاسفة هم أصحاب

(١) الاشارات ، ١٢١ .
(٢) المصدر نفسه ، ١٢١ ـ ١٢٢ .
(٣) النجاة ، ٢٦٦ .
(٤) الشفاء ، ج ١ ، ص ٢٦٦ ـ ٢٦٨ .

(1) Janer, Hisr. de la philos., 744.
(2) I bid., 752.
(٣) وصلنا هذا البحث عن طريق اللاتينية والعربية : ولقد نشر الاب لويس شيخو الاصل العربي سنة ١٩١١ .

الرأى والذين يستطيعون الفصل فى مثل هذه المسائل ، ومع هذا فانه لا ينكر ما للدماغ وأعصابه من دخل فى الحركة والاحساس. ومهما يكن فلعل هذه الآراء هى منبع تعريف العقل المشهور الذى يردده المتاخرون من مؤلفى العرب ، فهم يكادون يجمعون على أنه قوة أودعها الله فى القلب ولها شعاع متصل بالدماغ

لا نظن أنا فى حاجة الى مناقشة هذه الفسيولوجيا البائدة فان كشف الدورة الدموية قد قضى على فكرة الابنيما وما يتفرع عنها ، ودراسة الجهاز العصبى الحديثة لا تدع مجالا لتلك الآراء التى كانت تعد القلب المركز الرئيسى للحياة النفسية . والنظرية القائلة بتوزيع المخ الى مناطق نفوذ مستقلة تقوم كل واحدة منها بعمل خاص ، وإن كانت قد صادفت أنصارا عديدين فى القرن التاسع عشر ، لا تفسر الظواهر العقلية تفسيراً مقنعا . على أن ابن سينا كان يمزج الفسيولوجيا بعلم النفس النظرى ، ويخلط المادى بالروحى دون أن يوضح كيف يتفاعلان ؛ والصعوبة كل الصعوبة فى توضيح هذا التفاعل . فهو اذن لم يوفق لحل مشكلة الصلة بين النفس والجسم ولم يأتنا فيها بجديد ؛ وكل ما عمله هو أن ضم أفكارا أرسطية الى أخرى جالينوسية على الرغم مما بينها من تنافر أو تعارض .

(يتبع) ابراهيم مدكور

فى الأدب المقارن

القصص
فى الأدبين العربى والانجليزى
للأستاذ فخرى أبو السعود

الميل إلى تأليف القصص والاستمتاع بسماعه طبيعيان فى الانسان ، فهو كما يميل تبعا لغريزة الاستطلاع إلى مشاهدة حوادث الحياة تترى أمام عينيه ، يميل إلى حكايتها لغيره كما رآها أو تخيلها ؛ ويميل إلى الاستماع إلى غيره يرويها له ، يشبع بها غريزة الاستطلاع وملكة الخيال من نفسه . والحياة ذاتها ليست سوى قصة متتابعة الحوادث متوالية الفصول . وليس بد لمن شاء وصف بعض مظاهرها أو ظروفها من اللجوء إلى القصص ، وإلى القصص يلجأ بداهة كل صديقين تلاقيا بعد طول فراق ، وبالقصص يشغف الأطفال اشد الشغف ، وبه شغف الانسان فى عهد طفولته التاريخية .

كان القصص أول صور الأدب ظهوراً ، بل كان جماع الأدب والعلم والثقافة العامة لدى الجماعات الأولى ، يشمل معارفهم بالخالق والطبيعة والتاريخ وعقائدهم وتقاليدهم ، فما من شىء من ذلك كله إلا حاكوا له قصة ، ولا مظهر إلا اخترعوا له حكاية تعلله ، فكان قصص تلك العهود مملوءاً بالخرافات والأوهام ، دائراً حول الآلهة والملوك والأبطال والقبائل ، وبالجملة كان قصصاً رومانسياً تكثر فيه الخوارق والعظائم والمفاجآت والمخاطرات . وقد تخلف من كل ذلك تراث حافل من نثر وشعر ، يتمثل فى أساطير الأولين من مصريين وفرس وإغريق ورومان ، وبارتقاء الجماعة العقلى يتخلص العلم رويدا رويداً من آثار القصص والخرافة ويخلص الأدب بتلك الآثار وتتمثل فى شعر الملاحم وما شاكله

وإذا ما ظهر النثر الفنى فقد ولت فى آثاره أساطير الأولين تلك ، وإن بطل الاعتقاد فى كثير منها ، وخطا القصص إلى المرحلة الثانية من مراحل تطوره ، فاتخذ وسيلة لأسداء المواعظ وإذاعة التجارب وتحبيذ الفضيلة . أو لشرح النظريات العلمية أو الفلسفية ووضع لذلك على ألسنة الطير والحيوان ، أو أفواه الأرواح

والجان ، وصيغ أحيانا فى شكل حوار ، كما يرى فى قصص إيزوب وجمهورية أفلاطونَ وحكايات لا فونتين وكتاب أميل لروسو ؛ ويتطور القصص الشعرى أيضاً فتظهر الرواية الشعرية التمثيلية ، وتحل محل الملحمة ، وينفصل التاريخ مستقلا عن الأدب متخلصاً جهده من الأساطير ، وإن ظل الاتصال بين التاريخ والأدب وشيجا طول العصور .

فاذا اطرد رقى الحضارة ونمو العلم وازدهار الأدب ورواج النثر الفنى ، خطا القصص إلى مرحلته الأخيرة نحو الكمال ، فصار فنا مستقلا من كل غاية خارجة ، غايته الوحيدة غاية كل الفنون ، وهى الجمال والشعور وتصوير النفس الانسانية ، وصارت له قواعده وتقاليده المفهومة ، وبلغ مكانة ضرب راق من ضروب الأدب كالملحمة والدرامة والخطابه ، وسامى به النثر الشعر وباراه جولانا فى ميدان النفس الانسانية وأداء لوظيفة الأدب ، وظهر فى مضماره من فحول الكتاب من يضاهون فحول الشعر منزلة ونبوغا ، بل ظهر من الأدباء من يجمع بين الشعر والقصص ، وذهب الوهم الذى كان سائداً من قبل من أن القصص مطلب هين ، وقنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

وللقصص ، إذا ما بلغ هذا الطور السامى من أطوار رقيه مزايا يختص بها دون غيره من ضروب الأدب منظومه ومنثوره فهو يمتاز برحب المجال رحبا يمكن من يمارسه من تناول أطراف الحياة المترامية ، بين جد وفكاهة ووصف وحكمة وعلم وأدب ، وهو يفسح للخيال متسعاً بعيد الآفاق ، ويمتع اللب بما يعرض من دقائق الحياة وتفاصيلها إلى جانب جلائلها وبعيد أقطارها ، وبه يعرض من أحوال الحب وأطواره ما يضيق الشعر نفسه ذرعا باستقصائه إلى لمحات خاطفة ، وقبل القصص كان النسيب وقفا على الشعر دون النثر ، والقصص لسهولة متناوله يذيع فى الخاصة والعامة على حد سواء ، على حين كان الشعر وقفاً على خاصة المثقفين .

ولذيوع القصص فى الخاصة والعامة وجد فيه المصلحون وسيلة عديمة النظير لنشر آرائهم ودعاياتهم ، بتصوير الحال التى يكرهون وإبراز مساوئها وعرض ضحاياها والتنديد بجناتها وتشخيص سبل ملافاتها ، كل ذلك فى أسلوب قصصى شائق تقبله النفس وتسيغه وتقتنع به اقتناعاً كان صعب المنال لو عرض عليها الأمر فى صورة النصح أو الوعظ . ومن أشهر القصصيين الدعاة تولستوى وإبسن وأبانيز وغيرهم ممن كان لهم أكبر الأثر فى الفكر الحديث وأعظم الضلع فى التطور العقلى والمادى ، وهو أثر قل أن يجاريه أثر الشعر فى سالف العصور .

فالقصة ضرب من الأدب مرن ، يجمع مزايا الشعر كالخيال والعاطفة إلى مزايا النثر كالرحب والدقة والاستقصاء والفائدة العملية ، وهى بهذا تلائم العصر الحديث أكبر ملاءمة ، وهذا سر ذيوعها حتى كادت تعطل ماعداها من ضروب القول ، فقد تهيأت الأسباب من القرن الثامن عشر إلى اليوم لنهوض القصة الفنية ، التى تدرس نفس الفرد وحياة المجتمع وتحلل العواطف وتشرح الآراء والمبادىء ، وذلك برقى السواد الأعظم من الأمة بعد ان كان هملا فى غابر العصور ، وانتشار التعليم العام وبروز شخصية الفرد وذيوع مبادىء الحرية والديمقراطية ، هذا إلى ارتقاء الطباعة واعتماد الأدباء على الجمهور القارىء لا على رعاية الأمراء والوجهاء

ولم تقتصر القصة فى رقيها هذا الحديث على أن تميزت واستقلت ضربا قائما من ضروب الادب ، يتوفر على ممارسته بعض أقطاب الادب ، بل تطورت القصة تطورا داخليا ، وتميزت فيها ضروب من القصص يتوفر على كل منها بعض القصصيين : فهناك القصة التاريخية التى تدور حول الملوك والعظماء السابقين ، والقصة البيتية التى تصور المجتمع المتواضع تصويراً شائقا ، والقصة النفسية التى تحلل بواطن النفوس معتمدة على نظريات علم النفس الحديث أحيانا ، والقصة الاصلاحية التى تحاول تحسين حال العامل أو تعديل بعض النظم القانونية أو الاجتماعية ، أو تقويم بعض المعتقدات والتقاليد ، والقصة المستقبلية التى تتنبأ بما سيصير إليه الانسان وتحاول تسديد خطاه إلى ما يجب أن ينزع إليه فى مستقبله ، والقصة البوليسية التى تعرض حيل المجرمين وخطط متعقبيهم من الشرطة ، وقصة المغامرات التى تصف أعمال بعض الآفاقين ورحلاته فى المجاهل

هكذا يتطور القصص ، من نوادر وأساطير بدائية واهية القصد منتشرة النظام ، إلى صور فنية محكمة ، ومن أشباح مبهمة وحوادث متضاربة إلى شخصيات ناطقة وسياق منطقى منسجم ، ومن الخرافى والخارق والبعيد إلى الواقع والعلمى والحاضر ، ومن الماضى بآلهته وأبطاله وعظائمه إلى الحاضر بمشاكله العادية وأفراده المشهودين ، ومن اللفظ الطنان والخيال الشارد والعاطفة الثائرة إلى المعنى المتدبر والتأمل الهادىء والوصف المفصل ؛ وهذه

الصفات التى تكتسبها القصة فى طورها الراقى تكتسبها معها أو بعدها الرواية التمثيلية التى هى أسبق من صاحبتها إلى الظهور ، فتهجر الشعر إلى النثر ، والخيال إلى الدقة ، وتدرس النفس والمجتمع دراسة القصة لهما ، لاتكادان تختلفان إلا شكلا وطريقة تناول . فصاحب الرواية التمثيلية يترك أبطاله يرسمون شخصياتهم وأخلاقهم بأفواههم ، وصاحب القصة لايدعهم يفعلون ذلك إلا إلى مدى ؛ ثم هو يتولى عنهم الشرح ويحللهم تحليلا دقيقاً ، ويكون من الأدباء من يجمعون بين كتابة الرواية التمثيلية والقصة المقروءة

كان للانجليز قصصهم وأخبارهم وأساطيرهم قبل أن يتحضروا كما كان لغيرهم من الشعوب ، وكان كل ذلك يتداول شفاها ، فلما تحضروا وعرفوا الكتابة كان الشعر كعادته أسبق إلى الرقى ، فظهرت فيه قصص تشوسر المسماة حكايات كنتربرى ، ثم ارتقت الرواية التمثيلية فى عصر اليزابث على يد شكسبير ومعاصريه رقياً عظيما ؛ وبدأت القصة النثرية مرحلتها الثانية ، فاتخذت وسيلة لغيرها : اتخذها صاحب كتاب « يوفيواس » وسيلة لشراح آداب الجنتلمان ، واتخذها مؤلف « يوتوبيا » وسيلة لتصوير المدينة الفاضلة ، واتخذها كاتب « اطلانطس » وسيلة لبسط النظريات العلمية ، وفى كل هذه كان الفن هزيلا والشخصيات مطموسة أو معدومة والسياق متداعيا

ثم تهيأت الأسباب الاجتماعية والمادية والمعنوية سالفة الذكر اللازمة لدخول القصة طورها الثالث ، طور الفن المنسجم المهذب الذى يتوفر على تحليل النفس ودرس المجتمع ، وذلك فى أوائل القرن الثامن عشر ، وقد بدا ذلك التطور تدريجيا كما هو الشأن فى كل تطورات الطبيعة والمجتمع الانسانى ، فانسلخت القصة رويداً رويداً عن المقالة الاجتماعية التى كانت منتشرة إذ ذاك فى الصحف الدورية على أيدى ستيل وإديسون : كانت تلك المقالة تهتم بالأحوال الاجتماعية ، وتعرض لشخصيات المجتمع تحللها ، وأولعت بشخص واحد يدعى سيررودجر ، تتبعه فى شتى المواقف وتنطقه بشتى الملاحظات وتحيطه بمختلف الشخصيات ، فكان من مجموع تلك المقالات قصة ذات تصميم وشخصيات وبطل وحوار ووسط اجتماعى وهلم جرا ، ولم يبق امام الكتاب الذين جاءوا بعد اديسون وستيل ، إلا أن يزيدوا التصميم إحكاماً والحوار تسديدا والشخصيات بروزا

وكان تاريخ القصة بعد ذلك خلال القرنين السالفين تاريخ تطور ورقى مستمرين ، أحكمت أوضاعها وتعددت ضروبها وتتابعت أزياؤها ، وظهر فيها كبار المؤلفين رجالا ونساء : منهم فيلدنج وديفو وسمولت كتاب قصص المغامرات ، وجين أوستن وشارلوت برونتى ومسز جاسكل مؤلفات قصص المجتمع ، وسكوت صاحب القصص التاريخية ، ودكنز وبتلر أصحاب القصص الإصلاحية ، وكونان دويل مخترع القصص البوليسية الذى صير اسم شرلوك هولمز علما على ذلك الضرب من القصص ، إلى غير هؤلاء من القصصيين الدين لا يحصون ، وإلى غير نلك من ضروب القصص التى لا تستقصى . وفى تلك القصص تناول القصصيون اطراف الحياة المتباعدة وامتعوا النفوس وأرضوا الفن ، وما زالت القصة فى صعود وكأنها لما تبلغ ذروتها

وفى خلال ذلك الوقت كانت الرواية التمثيلية تتطور وتبعث بعثا جديداً ، على صورة مماثلة للقصة المقروءة ، قوامها النثر السهل المرسل والواقع الحاضر ، ومرماها درس المجتمع والشخصيات وتحليل الاراء والمذاهب ، وظهر فى مجالها ارنولد بنيت وبرناردشو وجالزوردى وغيرهم ، وإلى الاخيرين يعزى الفضل فى كثير من الإصلاح الذى طرا على النظم الاجتماعية والمذاهب الفكرية فى الجيل الاخير ، حتى شبه شو بمكنسه كهربائية ذهنية ، تنقى أوضار العقول من خرافات وتعصب وحماقات وتقاليد فاسدة

وكان للعرب فى جاهليتهم قصصهم وأخبارهم وأيامهم وأساطيرهم ، متداخلا كل ذلك فى شعرهم ونثرهم ، مختلطا بثقافتهم ودينهم ، وقد تخلف كثير من ذلك بعد ذهاب الجاهلية ، وظل مختلطا بالادب ممتزجاً بالتاريخ ، يظهر فى كتابات الجاحظ والاصمعى والطبرى والاصبهانى ، وغيرهم من الكتاب والمؤرخين على السواء ؛ وحيكت نوادر جديدة حول اعلام الحب والحرب ، كابن أبى ربيعة وأبى نواس وعنترة ومهلهل ؛ وحوى القرآن الكريم طرفا جليلا من شائق القصص ، وما زالت السور المحتوية على قصص يوسف ومريم ونوح من أقرب سور القرآن إلى نفوس الخاصة والعامة ؛ ثم انتشرت الكتابة وذاع النثر الفنى ، فدخل القصص طوره الثانى : الطور الذى فيه يستخدم وسيلة لغيره ، فاتخذ فى كليلة ودمنة وسيلة لبث الحكمة ، وفى رسالة حى بن يقظان ذريعة لشرح مسائل الفلسفة ، ولا حاجة إلى القول بأن خصائص القصة الفنية فى هذه الكتب وأمثالها كانت ضعيفة واهية

ثم تمهدت بعض أسباب دخول القصة فى طورها الثالث الفنى :

باستقرار الحضارة والرفاهة ، ونضج الثقافة ورواج سوق الأدب وكان ذلك فى القرن الرابع ، فبدأت تنمو بذور القصة الفنية التى تدرس المجتمع وتحلل الشخصية وتهتم بالتصميم الفنى والفكرة الموحدة ، ويبدو كل ذلك فى مقامات بديع الزمان ، فهذا الكاتب يمثل فى العربية من هذه الوجهة مكان أديسون وستيل فى الانجليزية ، وقد أبدى فى ثنايا مقاماته من نفاذ النظرة وبداعة الوصف وبراعة الفكاهة وتنوع الموضوعات ما هو جدير بأسمى أنواع القصص ؛ واخترع شخصية أبى الفتح الاسكندرى فكان على الأرجح المؤلف العربى الوحيد الذى اخترع شخصية شائقة واضحة من صنع الخيال المجرد . ولم تكن شخصيات المقامات التالية فيما بعد إلا نسخاً مكررة منه لا ابتكار فيها ، وشخصية أبى الفتح الاسكندرى تعين من مراحل تطور القصة العربية نفس المرحلة التى تعينها شخصية سير رودجر ديكفرى من تطور القصة الانجليزية .

فمقامات البديع فى الأدب العربى بمثابة مقالات أديسون وستيل فى الأدب الانجليزى : تعين بدء ظهور القصة الفنية الاجتماعية التحليلية ، بيد أن تطور القصة العربية وقف عند هذا الحد لا يتخطاه . ولم يبلغ مرحلته التالية ، لأن الأسباب اللازمة لذلك لم تكن مكتملة : فالمقامات ذاتها قد ظهرت متأخرة ، ظهرت فى أوج رقى الأدب العربى فى القرن الرابع . وكان أجدر أن تأتى متقدمة فى القرن الثانى مثلا ، فيليها باقى التطور المنشود الذى تلا مقالات أديسون وصاحبه فى الانجليزية ، وما ذلك إلا لنزعة الجمود والتقليد التى كانت دائماً مخيمة على الأدب العربى ، تمنع المغامرة الأدبية والابتكار والتنويع فى الأشكال والموضوعات ، وفقدت المقامات بعد بديع الزمان صبغتها الاجتماعية وأصبحت لعبا بالألفاظ والمعانى .

أضف إلى نزعة الجمود تلك استمرار اعتماد الأدب على الأمراء دون جمهور الشعب ، قلما يصور رجاله مشاكل الشعب أو يحاولون الأخذ بيده وقيادة طريقه : فالحريرى مثلا حين تابع بديع الزمان وكتب مقاماته لم يكتبها بداع من داخل نفسه يدعوه إلى تناول مشاكل المجتمع ومطامع الشعب بالدرس والعرض والاصلاح والتوجيه ، بل امتثالا لاشارة بعض الأمراء ممن « أشارته حكم ، وطاعته غنم » كما يقول هو فى مقدمته . ومحال أن ترقى القصة الاجتماعية فى مجتمع أدباؤه متنصلون من مشاكل شعبه لائذون بظل أمرائه

زد على ذلك مكانة المرأة فى المجتمع ، التى كانت قد بلغت قبل أن يكتب البديع مقاماته حدا من التدهور بعيدا ، بعد ما كان من امتداد الفتوح واختلاط الأجناس وتفشى التسرى والعبث . فضرب على المرأة الحجاب ، وخيم عليها الجهل واعتزلت المجتمع ، والمجتمع بغير المرأة لا يخرج القصة الفنية التى تدرس الحب وتقدس الزواج وتشرح العواطف ، وإنما ينتج الشعر المستهتر البذىء كشعر بشار وأبى نواس . وقد كان انهاض حال المرأة نصب عينى أديسون وستيل وغيرهما ممن تلاهما من القصصيين كما كان الحب مدار أكثر القصص ، كما كان من النساء جم غفير من القصصيات كما تقدم .

وإلى نزعة التقليد التى كانت تسود الأدب العربى ، كان ذلك الأدب ينزع إلى الصنعة اللفظية : فمقامات البديع ذاتها مثقلة بالصنعة والمحسنات ، ولا غرو ، فاذا كان الأدب قد تخلى إلى حد بعيد عن مشاكل المجتمع ، فلم يبق له من مواد القول إلا النذر اليسير ، فلما أعوزه الافتنان فى المعانى التفت إلى التلاعب باللفظ ، وإلى هذه الزركشة اللفظية قصد الحريرى أول ما قصد فى محاكاته للبديع ، ولم يفكر قط فى ابتكار جديد من جهة المعانى والأفكار ولم يحاول الزيادة عليه من جهة تناول الموضوعات الاجتماعية ، بل اكتفى بالتقليد الشكلى ، فجعل فى كل مقامة شخصين يروى أحدهما عن الآخر ، وتنقسم المقامة بذلك إلى قسمين . دهليز للقصة كما يقول العامة ، والقصة ذاتها التى تبدأ بظهور البطل ، ولم تجىء شخصية بطله فى وضوح شخصية أبى الفتح وتعدد نواحيها

فحالة المجتمع العربى ، ونظام الحكم فيه ، ومنزع الأدب العربى ، كل هاتيك لم تكن ملائمة لتطور القصص إلى كماله ، فوقف عند بدء الطور الثالث ، وهو الطور الفنى الصميم ، فعرف الأدب العربى النوادر والأخبار والسير وما إليها ، وعرف الحكايات ذوات المغزى العلمى أو الخلقى ، ولم يعرف القصة الاجتماعية والنفسية ذات التصميم المحكم والشخصيات الواضحة ، والفكرة الموحدة والغاية المستقلة والموضع الفنى ، ولم تسم القصة فى الأدب العربى إلى منزلة عالية كالتى تمتع بها الشعر والخطابة والنقد ، وظل للشعر المكانة الأولى وبقى مستأثراً بأكثر ضروب القول ، ولم يظهر فى القصة من الأعلام أمثال من ظهر فى الشعر والنقد والخطابة ، وترك القصص المطول الحافل بالوصف الاجتماعى والخيالى للعامة

فخرى أبو السعود

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

١٣ — فى النيل

فى (حلبة الكميت) : ركب الأمير تميم فى النيل متنزهاً فمرّ ببعض الطاقات المشرفة فسمع جارية تنشد شعراً :

نبهتُ ندمانى بدجلة مَوْهناً والنجم فى أفق السماء معاق (١)
والبدر يضحك وجهه فى وجهها
والماء يرقص حولها ويصفق

فاستحسنهما تميم وشرب عليهما ، ومازال يستعيدهما ويشرب حتى انصرف وهو لا يعقل سكرا . فلما أصبح قابلها بهذين البيتين :

شربنا على النيل لما بدا بموج يزيد ولا ينقص
كأنّ تكاثف أمواجه معاطفُ جارية ترقص

١٤ — شهادة . . .

كان أبو عيسى بن الرشيد يقول لعمه ابراهيم بن المهدى: السكر على صوتك شهادة(٢) ياعم . . .

١٥ — أتكابر ابليس ؟

فى (محاضرات الراغب) : قال أبو نُواس : كنت يوماً فى الحمام فقلت قصيدة وفيها :

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى النار فى الفحَم (٣)

ولم يكن معى أحد فتراءى لى شبح فقال : قطع الله لسانك فإنك لا تفلح ! أتقول مثل ما يقول العوام ؟ ألا قلت :

فتمشت فى مفاصلهم كتمشى البرء فى السقم

فقلت : هكذا قلت

فقال : أتكابر إبليس ؟ ؟

١٦ — أحسن الجواب

قال أبو العيناء : قال لى الخليفة المنتصر يوماً : ما أحسنُ الجواب ؟

فقلت : ما أسكت المبطل ، وحيّر المحق

فقالت : أحسنت والله !

١٧ — بالله ألا رحمت غربتها

فى (اليتيمة) : حكى أبو الخطاب بن عون الحريرى النحوى الشاعر أنه دخل على أبى العباس النامى قال : فوجدته جالساً ورأسه كالثغامة(١) بياضاً ، وفيه شعرة واحدة سوداء ، فقلت له : ياسيدى ، فى رأسك شعرة سوداء

فقال : نعم ، هذه بقية شبابى وأنا أفرح بها ، ولى فيها شعر . فقلت : أنشدنيه ، فانشدنى :

رأيت فى الرأس شعرة بقيت سوداء تهوى العيون رؤيتها
فقلت للبيض إذ تروّعها بالله إلا رحمت غربتها !
فقلّ لبث البياض فى وطن تكون فيه البيضاء ضرتها

ثم قال : يا أبا الخطاب ، بيضاء واحدة تروّع ألف سوداء ، فكيف حال سوداء بين ألف بيضاء ؟

١٨ — المقادير تصير العيى خطيباً

قال الطبرى فى تاريخه :

يحكى أن الحجاج ذُكر عنده رجل بالجهل فاراد اختباره فقال : أعظامى أم عصامى ؟ أراد أشرفت بآبائك الذين صاروا عظاماً أم بنفسك

فقال الرجل : أنا عصامى عظامى ، فقال الحجاج : هذا أفضل الناس ، فقضى حوائجه . ومكث عنده ثم فتشه فوجده أجهل الناس . فقال له : تصدقنى كيف أجبت بما أجبتنى به حين سألتك عما سألتك ؟

فقال : لم أعلم أعصامى خير أم عظامى ، فخشيت أن أقول أحدهما ، فقلت كليهما ، فان أضرنى أحدهما نفعنى الآخر

فقال الحجاج عند ذلك : المقادير تصير العيىّ خطيباً

١٩ — اذا تمت صارت سياسة

فى تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء لهلال بن المحسن الصابى قال أبو الحسن بن الفرات : أصل أمور السلطان مخرقة فاذا تمت واستحكمت صارت سياسة

---

(١) موهنا : نصف الليل (دجلة) بالفتح والكسر

(٢) الشهادة اسم من التشهيد : المقتول فى سبيل الله

(٣) الفحم بفتح الحاء وتسكينها

(١) الثغامة واحدة الثغام وهو نبت أبيض الزهر والثمر يشبه به الشيب

٢٠ — بكت رحمة للورى بالدم

قال أبو الأصبع بن رشيد الأشبيلي لما هطلت بأشبيلية سحابة بقَطْرٍ أحمر في يوم السبت الثالث عشر من صفر عام (٥٦٤) :

لقد آن للناس أن يقلعوا ... ويمشوا على السنن الأقوم
متى عهد الغيث (يا غافلا) ... كلون العقيق أو العندم[1]
أظن الغمائم في جوها ... بكت (رحمة للورى) بالدم

٢١ — اقرأ قرآنك

قال الشاطبي في (الاعتصام) :

كان في الزمن القريب رجل يقال له الفزاري ادعى النبوة واستظهر عليها بامور موهمة للكرامات والإخبار بالمغيبات ، ومخيلة لخوارق العادات ، تبعه على ذلك من العوام جملة . وكان مقتل هذا المفترى على يد أبي جعفر بن الزبير .

قال الحسن بن الجباب : لما أمر بالتاهب يوم قتله ، وهو في السجن الذي أخرج منه ، جهر بتلاوة سورة (يس) فقال له أحد الدعار [2] ممن جمع السجن بينهما : اقرأ قرآنك ، لأي شيء تتفضل على قرآننا اليوم ؟ فتركها مثلا بلوذعيته ،

٢٢ — تعالوا نتكرم اليوم

قال أبو الحسن القروي يوماً لندمائه : تعالوا نتكرم اليوم

فقالوا : وأي يوم لا يتكرم فيه سيدنا ؟

قال : قولي (تتكرم [3]) من (الكَرْم) لا من الكَرَم

قالوا : وكيف ؟

قال : نأكل سكباجة[4] وحصرمية ، وحلوى دبسية، ونشرب العنب، ونتنقل بالزبيب ، لنكون قد استوفينا مرافق الكَرْم ومنافعه

قال بعضهم : ينبغي أن نستوقد بقضبانه أيضاً ليتم التكرم .

فقال : أحسنت وجودت ، وأمر بذلك كله وطاب يومهم

٢٣ — إن غبت عنا دخل الصبح

قال القاضي الفاضل :

بتنا على حال يسر الهوى ... وربما لا يمكن الشرح
بوابنا الليل وقلنا له : ... إن غبت عنا دخل الصبح !

٢٤ — صدق الأمير

في شرح (النهج) لابن أبي الحديد :

ناظر المامون محمد بن القاسم النوشجاني في مسئلة كلامية ، فجعل النوشجاني يخضع في الكلام ويستخذي له ، فقال : يا محمد ، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجة لي عليك وقد ساءني ذلك منك ، ولو شئت أن افسر الامور بعزة الخلافة وهيبة الرياسة [1] لصدقت وان كنت كاذباً ، وعدلت وان كنت جائراً ، وصوبت وإن كنت مخطئاً ؛ ولكني لا أقنع إلا باقامة الحجة ، وإزالة الشبهة ؛ وإن أنقص الملوك عقلا وأسخفهم رأياً من رضى بقولهم : صدق الأمير . . .

٢٥ — هناك والله قرارة اللؤم

وقف اعرابي فسأل قوماً فقالوا : عليك بالصيارفة .

قال : هناك (والله) قرارة اللؤم

٢٦ — كبرت

في (نفح الطيب) :

قال أبو محمد بن حزم الحافظ : كنت يوما في مجلس الرئيس الفقيه أبي بكر بن زهر ، فدخل علينا رجل عجمي من فضلاء خراسان ، وكان ابن زهر يكرمه ، فقلت له : ما تقول في علماء الاندلس وكتابهم وشعرائهم ؟

فقال : كبُرت !

فلم أفهم مقصده ، واستبردت ما أتى به ؛ وفهم مني ابو بكر ابن زهر أني نظرته نظر المستبرد المنكر .

فقال لي : أقرأت شعر المتنبي ؟

قلت : نعم ، وحفظت جميعه .

قال : فعلى نفسك (إذن) فلتنكر ، وخاطرك بقلة الفهم فلتتهم ، فذكرني بقول المتنبي :

كبرت حول ديارهم لما بدت ... منها الشموس وليس فيها المشرق

فاعتذرت للخراساني وقلت له : قد (والله) كبرت [2] في عيني بقدر ما صغرت نفسي عندي حين لم أفهم نبل مقصدك

---

(١) العندم : دم الاخوين : شجر احمر ، وقيل صبغ احمر
(٢) الداعر : الشرير ، قاطع الطريق ، الفاسق
(٣) اشتق التكرم من الكرم وروى الثعالبي اللفظة في كتبه . والتكرم في لغة (الجزيرة) : التنزه عن الشيء ، وتكليف الكرم
(٤) السكباج معرب عن (سركه باجه) وهو لحم يطبخ بخل ، ويقال : سكبج الرجل إذا أعد سكباجا (التاج)

(١) في الأساس : كبر الرجل في قدره (بضم الباء) وكبر في سنه (بكسر الباء)
(٢) في كتب العلم والادب : الرئاسة والرياسة وفي كتب اللغة : الرآسة

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

— ١ —

هل الفلسفة الاغريقية وليدة الفلسفة الشرقية ؟

تمهيد

تشغل الباحثين منذ أقدم عصور التاريخ مشكلة لم يهتدوا إلى حلها حتى اليوم حلا حاسما يقف تيار الاعتراضات من الجهات المعارضة ، وإن كانت بحوث المستشرقين والمستمصرين فى العصر الحديث قد وصلت إلى ترجيح إحدى كفتى الميزان فى هذه الفكرة العويصة التى يترتب عليها تغيير اتجاه الحكم على اليونان وعلى الشعوب الشرقية القديمة إلى ناحية غير التى كان يسير فيها قبل ظهور نتائج هذه البحوث . تلك المشكلة هى : هل الفلسفة اليونانية ابتدعت فى يونان وليس لها أية صلة بالشعوب الشرقية ؟ أو هى تراث نظمه الاغريق ؟ وإذا كانت الأولى ، فهل يرجع مبدؤها إلى القرن السادس فقط كما زعم « أرسطو » حين قرر أن « تاليس » هو أول الفلاسفة جميعا ؟ أو يمكن إصعاد الفلسفة إلى عصور غابرة إغريقية محضة ؟ وإذا كانت الثانية ، فما هو أول تلك الشعوب الشرقية الذى نشأت الفلسفة بين ربوعه ؟

قرر أرسطو أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى فى تاريخ العقلية البشرية فى تلك المستعمرة اليونانية التى تدعى « أيونيا » والتى سبق أن أنسها قوم من الاغريق القدماء الذين هاجروا فى عصور ما قبل التاريخ إلى آسيا الصغرى وأسسوا بها تلك المدن التى لم يلبث الاغريق الأصليون أن احتلوها وبسطوا عليها سلطانهم السياسى والأدبى ، فافسحوا بذلك الطريق أمام العقل الاغريقى الجبار ، وحلوا عقاله الذى كان قد أمسكه فى آسيا عن الصولان فى عصور ماقبل الاستعمار الجديد . وأول من بدأت العقلية الاغريقية القديمة تتمثل فيه هو : « تاليس الملتى » ، أول فيلسوف فى الدنيا . وإذاً ، فالفلسفة إغريقية الأصل والعنصر ، وهي لاتصعد فى رأى أرسطو إلى ماوراء القرن السادس قبل المسيح ، ولكن « ديوجين لا إرس » المؤرخ الاغريقى الشهير الذى عاش فى القرن الثالث قبل المسيح يحدثنا فى كتابه « حياة الفلاسفة » عن فلسفة المصريين والفرس فى العصور الغابرة حديثا ممتعا يدل دلالة قاطعة على أن الشرق قد سبق الغرب إلى الفلسفة بزمن بعيد . وأنه كان أستاذه فى كل ماوراء الطبيعة كما كان أستاذه فى العلوم الطبيعية والرياضية بانواعها ، وأن الغرب جلس فى الازمان المظلمة مجلس التلميذ المستلهم من الشرق العالم المستنير

فأنت ترى تعارض هاتين الفكرتين وتصادمهما منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا ، وترى كذلك أن لكل منهما أشياعا ومؤيدين ، ففريق يسلك منهج أرسطو فيؤكد أنه ليس للشرقيين فضل فى هذه الثروة العقلية العظيمة إلا ما ظهر لفلاسفتهم بعد الاسلام من مجهودات فى شرح الفلسفة اليونانية وتوجيهها ؛ أما فى العصور الاثرية فلم يعرف التاريخ عنهم إلا الدين المقيد بالوحى ولم يحفظ لنا عنهم مجهودات شخصية تشرف العقلية البشرية ، بل إنهم نسبوا كل شىء عندهم إلى السماء ، حتى تلك المتناثرات الاخلاقية المنتزعة من الفضائل العملية والمصوغة فى حكم مقتضبة ، ويتخذون دليلا على هذا ما تزدحم به كتب التاريخ من إزهار الدين وإجداب الفلسفة فى الشرق كل هذا الوقت الطويل الذى تلا العصور الاثرية ، ويقولون : إنه لوكان للشرق فلسفة لشملها ناموس التقدم ولشاهد العالم تطوراتها المختلفة كما حدث فى بلاد الاغريق .

ومن أشهر أصحاب هذا الرأى فى العصور الاخيرة « بار تلمى سانت - هلير » ، إذ يقول فى مقدمة ترجمته « للكون والفساد » ما نصه : « أما من جهة الفلسفة الشرقية فاننا لانعرف ، بل ربما لن نعرف أبدا من امرها شيئا معينا بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسية وانقلاباتها ، فان أزمنتها وأمكنتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء . إنها مستعصمة دون إدراكنا مدعاة للشكوك لما يغشاها من كثيف الظلمات ، حتى لوعرفنا منها هذه التفاصيل مع الضبط الكافى لما أفادنا ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا فى الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها

كثيراً . إن الفلسفة الشرقية لم تؤثر فى فلسفتنا مع التسليم بانها تقدمتها فى الهند وفى الصين وفى فارس وفى مصر فاننا لم نستعر منها كثيراً ولا قليلا . فليس علينا أن نصعد إليها ، لنعرف من نحن ومن أين جئنا (١)

ثم قال :

ولقد تصديت فوق ذلك لتبيين أن العبقرية الإغريقية هى التى دانت العالم بهذا النفع العلمى الجليل دون أن تكون مدينة فيه لغيرها ، فاذا كانت الشعوب المجاورة لها آتتها شيئاً من العلم فما هو إلا مدد مبهم غاية فى الابهام . لا مراء فى أن المصريين والكلدان والهنود لهم فى ماضى الانسانية مقام كبير ، ولكنهم مع ذلك فى الفلسفة أو فى العلم بعبارة أعم ليسوا شيئا مذكوراً فى جانب الاغريق الذين لم يكونوا ليتعلموا منهم (٢) .

وقال أيضا : « وإن العلم على جميع صوره كان معدوماً فى الشرق فاخترعه الاغريق ونقلوه إلينا » (٣) .

ولهذا الرأى مقلدون (٤) فى مصر كما هى الحال فى كل فكرة تطعن على الشرق .

وفريق آخر يذهب الى مانقله « لاإرس » من أن الفلسفة الاغريقية ليست إلا تراثا شرقياً متغلغلا فى القدم ويستندون فى هذا إلى براهين أهمها ما يأتى :

١ — إن جهود المستشرقين قد وضعت أمام أنظارنا مدنيات شرقية ضاربة فى التقدم بسهم نفاذ كمدنيتى مصر والعراق مثلا ، وأنبأتنا بأن هذه المدنيات سابقة على مدنية الاغريق بعدة قرون ، وأثبتت لنا علائق متينة بين بعض ما تحتويه هذه المدنيات وبين الفلسفة الاغريقية مثل علاقة نظرية « تاليس » الشهيرة القائلة بأن أصل الكون هو الماء بأنشودة خلق الكون الدينية العراقية التى تصرح بأن كل شىء فى الكون منشؤه الماء إذ تقول فى مطلعها ما ترجمته : « حين لم تكن السماء العليا بعد

(١) راجع مقدمة كتاب الكون والفساد لارسطو ترجمة الاستاذ احمد لطفى السيد باشا صفحة ٢

(٢) انظر صفحة ١٠٤ من مقدمة كتاب الكون والفساد لارسطو

(٣) انظر صفحة ١٠٦ من هذه المقدمة

(٤) انظر قادة الفكر للدكتور طه حسين بك

قد فازت باسمها ولم تكن الأرض هى الأخرى قد تسمت بهذا الاسم كان أبوهما : « أبسو » ، وأمهما « تياما » ، وهما : « الماء » أو جوهر كل شىء ممتزجين امتزاجا تاما قصد التناسل والاخصاب » (١) .

فاذا لاحظنا أن الانشودة العراقية كانت قبل « تاليس » بعهد بعيد ، وأن سيادتها فى القرن السادس قبل المسيح كانت على أتم ماتكون قوة وتغلغلا فى النفوس ، ولاحظنا الصلات التجارية والاجتماعية فى ذلك العصر بين العراق وأيونيا استطعنا أن نرجح فى سهولة كفة تأثر تاليس بتلك الانشودة العراقية القديمة ، بل استطعنا ان نجزم بأن من المستحيل أن يكون تاليس قد ابتدع نظريته فى أصل الكون .

٢ — ان العلماء المشتغلين بالبحث فى الانسان وخواصه والفروق الموجودة بين طوائفه المختلفة قد قرروا أنهم التقوا أثناء بحوثهم بأدلة قاطعة على أن بعض النظريات الاغريقية لا يمكن أن تكون من أصل إغريقى ، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها .

٣ — إن الباحثين الأثريين قد عثروا على كلمات : العدالة والفضيلة والنفس والحياة الأخرى فى الشرق قبل مبدأ تاريخ وجودها فى الغرب بقرون لا يعرف مداها ، بل إنهم قد تأكدوا من أن الغرب لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد اختلاطه بالشرق .

٤ — إن علماء الرياضة قد فرغوا من تقرير أنه من غير الممكن أن تبنى الاهرام فى بلد لم تقطع فيه الهندسة العلمية أشواطا بعيدة .

وفى هذا رد بليغ على الذين يزعمون أن مصر لم يكن فيها هندسة علمية ، وإنما كان فيها هندسة عملية فحسب (٢) .

٥ — هناك أدلة أخرى لم تصل من القوة العلمية إلى ماوصلت اليه الأدلة السابقة ، وإن كان أنصار هذا الرأى يستأنسون بها مثل رحلة تاليس إلى مصر والشرق الأقصى ، ومثل وجود العناصر الأولى من منطق أرسطو فى المدارس الهندية السابقة

(١) انظر صفحة ٣ من مقدمة الجزء الاول من كتاب « بريهييه »

(٢) انظر قادة الفكر للدكتور طه

لعصره ، ومثل وجود الكلام عن الجوهر الفرد فى المدارس الهندية كذلك أو وجود فكرة التناسخ عند المصريين والهنود وغير ذلك مما يسند هذا الرأى الأخير ويقويه .

إذا عرفنا كل هذا وتبينا أن هذه الفلسفة اليونانية العظيمة إنما هى وليدة الاساطير الشرقية ، فقد وجب على كل باحث فى الفلسفة أن يبدأ بحوثه بفلسفة هذه الشعوب الشرقية ، ليكون على بينة من العناصر الأساسية التى تكون منها الجسم المراد درسه

غير أن هناك عقبات ومصاعب اعترضت ولا تزال تعترض سبيل دارس الفلسفة الشرقية وتقفهم موقف الحروجة والعسر مثل :

١ — مايزعمه بعض المتحاملين من المحدثين من أن فكرة بدء الخلق فى الشرق تستمد عناصرها من الدين أكثر مما تستمدها من الفلسفة ؛ وإن شئت فقل : إن الدين والفلسفة فى الشرق شىء واحد ، ولهذا لم يعرف للتاريخ نظرية فلسفية ظهرت فى الشرق القديم مستقلة عن الدين ، وإنما مهد النظريات الحرة البعيدة عن كل التأثرات الدينية من غير استثناء هو بلاد الإغريق . وهذا هو الباعث الأول الذى قلل من أهمية دراسة الفلسفة الشرقية فى نظر علماء العصور الحديثة وحط من قيمتها عندهم

٢ — إن المصادر التى وصلت إلينا عن فلسفة تلك الشعوب الشرقية قليلة لا تكفى لإشباع الرغبة العلمية عند الدارس المتقصى الذى لا يرضى من المشكلة بأقل من الاحاطة بجميع نواحيها ، وإن كانت هذه الندرة فى المراجع لم تحل بين الباحثين المحدثين وبين معالجة هذه الفلسفة الشرقية ووضع المؤلفات الضخمة عنها مثل كتب :

(ا) « هيكل تاريخ الفلسفة الهندية » تأليف « ماسون أورسيل » وقد ظهر فى سنة ١٩٢٣

(ب) « تاريخ فكرة وحدة الوجود الهندية » تأليف « أولترامار » ظهر فى سنة ١٩٢٣

(ج) « تاريخ الديانات » تأليف « دينيس سورا » ظهر فى سنة ١٩٢٤

(د) « أصول الديانة الاسرائيلية » : « الجيوفية القديمة » تأليف « س . كوسان » ظهر فى ١٩٣١

(هـ) « تاريخ الفلسفة الصينية » تأليف « زانكير » ظهر فى سنة ١٩٣٣

على أن هاتين العقبتين المتقدمتين لا تمنعاننا من أن نعتبر دراسة الفلسفة الشرقية هى أول ما يجب على المشتغل بدراسة الفلسفة الاعتناء به ، أما امتزاج الفلسفة بالدين الذى كان من عوامل حروجة دارس موقف الفلسفة الشرقية فسنجتهد فى حله بأن نعين مهمة كل من هذين الممتزجين اللذين عقد امتزاجهما الموقف وجعله من المشاكل العويصة

ولكن قبل أن نعالج هذا الموضوع ينبغى لنا أن نشير إلى أن تلك العقبة الأولى الناشئة عن امتزاج الفلسفة الشرقية بالدين ليس مسلماً بها من جميع العلماء والباحثين المحدثين ، إذ يصرح بعضهم بأن هذا الامتزاج ليس خاصاً بالشرقيين فى العصور القديمة ، وإنما هو طبيعة إنسانية عامة كما وجدت فى مصر والعراق فى الأزمان الغابرة ، كما وجدت كذلك فى أوربا فى القرون الوسطى . وليس القديس « أوجستان » والقديس « توماس » والقديس « أنسلم » — وهم مشاهير فلاسفة المسيحيين فى أوربا — إلا مظاهر لهذه الفترة البشرية التى نشأت على مزج الدين بالفلسفة ، بل إن « ديكارت » و « اسبنوزا » و « كانت » أنفسهم — وهم أعلام فلاسفة العصر الحديث — ليسوا إلا مظهراً آخر من مظاهر هذا الانعطاف الطبيعى . وإذاً ، فرمى الشرق القديم وحده بهذه النقيصة — إن صح أنها نقيصة — ضرب من العنت والجور اللذين يجب أن يتنزه عنهما الباحث المحايد

وسواء أصح الرأى الأول أم الثانى ، فإننا سنحاول هنا أن ندرس الفلسفة الشرقية الممتزجة بديانات الشعوب التى ظهرت فيها ، عاملين — كما قدمنا — على تمييز الفلسفة من العقيدة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

وسنبدأ دراستنا بأقدم هذه الديانات الوثنية عهداً ، وهى الديانة المصرية التى لم يعرف التاريخ أعرق منها فى أغوار الماضى البعيد .

(يتبع) الدكتور محمد غلاب

هتـــاف الشيطان

للأستاذ عبد المغنى على حسين

كنا فى حجرة استقبال ، بدار انجليزية ، بإحدى مدائن انجلترا ، والفصل شتاء ، والوقت ليل ؛ فالستائر مسدلة ، و نار الفحم موقدة ، ونحن فى غمرة من الدفء الشهى ، ذلك الموج الخفى ، فى اللجى الأثيرى . وكانت الطبيعة فى تلك الليلة غضبى والريح تهب من جميع الجهات إلى جميع الجهات ، يجن جنونها فتثب على الشجر المنحف العارى تعركه عركا وتكاد تمزقه وتشظيه ، لولا تلويه ، فتختلط زمجراتها بعويل الشجر . كانت الريح فى الفينة بعد الفينة تهوى علينا من المدخنة ، كأنما تبحث عنا جاهدة ، فاذا استعصت عليها الأبواب والنوافذ لم تتحرج أن تأتى البيوت من سقوفها ، فتنقض علينا تنفث فى وجوهنا السناج والدخان . ثم ترتد من المدخنة لتكر على زجاج النوافذ تحصبه برشاش المطر .

كنا فى الحجرة اثنين . أما الثانى فسيدة انجليزية شقراء أرملة فى نحو الخمسين ، تنحنى على النار فتجيل فيها العود ، وتعتدل فتضع ساقاً على ساق ، و تنظر إلى اللظى بعينين رماديتين حالمتين حزينتين . هى (صاحبة البيت) كما كنا نسميها . كنا نسمر سمراً متراخياً أكثره سكوت ، إذ كان الحس موزعاً ما بين تخدير الدفء وتخويف الطبيعة . إلى أن حدث أمر أيقظ منا الحس ، وأهاج النفس ، فاذا هياج الطبيعة من هياج النفس كخطر النسيم من لفح الجحيم .

ذلك أنه كان على إحدى حوائط الحجرة لوحة فيها رسم فتى وفتاة كلاهما فى نحو العشرين أو دونها ، أما الفتى فكان صغير الجرم . فى وجهه إشراق الذكاء . وفى هيئته جد وحيوية ؛ يبسم للدنيا ـــ الدنيا المخاتلة ! وأما الفتاة فكانت ناهداً هيفاء بسمتها الحلوة خليقة أن تمحو مرارة الدهر ، وتطرد الحزن من أقطار الوجود . شعرها مكور على رأسها على النمط الفكتورى ؛ ثوبها طويل محكم يبدى من سحرها النسوى ما لا أظن العرى يبديه ؛ وقفتها فيها ميل من الدل والطراوة ، وعيناها رماديتان حالمتان

كان فى الفتاة من سيدة الدار شبه ، ولكنه ضئيل جداً . لاحت منى التفاتة إلى تلك الصورة ، فقلت أسائل السيدة عنها وأجعلها موضوع حديث . فما إن فعلت حتى رأيتها وجمت وجوما انقبض له صدرى . قالت : « ألا تعرف من تكون الفتاة ؟ » قلت « من ؟ » قالت « أنا » . فلم أقل شيئاً ، ولكنى عجبت من فعل السنين ، لئن كانت تلك هى هذه فان الزمن لم يترك منها إلا بقدر ماترك فى جسم أبى الهول من شكل الأسد . لابد وأن تكون أهوال ألف عام قد حشدت فى عمر هذه السيدة حتى صارت مما كانت إلى ما هى الآن .

قلت فمن الفتى الوسيم ؟ قالت « زوجى » واغرورقت عيناها الحالمتان ، ومن الغريب أن الدموع لم توقظهما من أحلامهما .

حسبت أنى آلمتها بذكرى هناء ذاهب . وحبيب غير آيب ، فقلت متعثراً متعذراً : « أخشى أن أكون أدميت جرحاً عله كان اندمل . فقالت « لا إخال مثل جرحى يندمل . وتلا ذلك سكوت وجدته خيراً من الكلام ، ووددت لوأن كلاماً لم يكن

ثم رأيت السيدة تنظر إلى نظرة فيها حنان الأم ، واذا بها تقول : « أوصيك يابنى ألا تذوق الخمر أبداً ، فان كنت شربتها فلا تقربها بعد اليوم » . فدهشت لهذا الكلام المفاجىء وعجبت له . قلت « ماهذا الذى تقولين ؟ » قالت « لقد كانت حياتى مأساة يؤلمنى أن أقصها فأحياها من جديد ، ولكنها عبرة نافعة لمن هو فى سنك ، فسأقصها عليك .

كان زوجى فى أول عهدنا فتى جم المحاسن ، شديد الحب لى وللأطفال ، يهوى العش الذى بنينا ، وكان فى عمله مثال النشاط ، جم الكفايات . وشاء الجد العاثر أن ينقل إلى وظيفة (بالجمارك) ، فكانت مهمته تقدير المكوس على الخمر التى ترد من الخارج ، ومرت الأيام فاذا بى أشم ريح الخمر من فم زوجى ، فأبديت له مخاوفى ، فطمأننى قائلا انه يسترشد فى عمله أحياناً بتذوق عينات الخمر ، وانه انما يفعل ذلك بحذر وما يتناوله لا يذكر . ومرت الأيام فاذا به يعود إلى يترنح من الشراب ثم لم يعد المحب العطوف البسام ، بل صار غضوبا اذا كلمته رفع صوته بالجواب الخشن . ثم ازداد فكان لا يفرغ هراؤه ما دمت بمرأى منه . ثم استغلظ فصار يضربنى ويضرب

الاطفال. كل ذلك وأنا حافظة عهده، أكتم ما أنافيه عن الناس ثم حدث ما لم يكن منه بد، ففصل من عمله لقلة كفايته وسوء خلقه، واستعجف عيشنا، فأكلنا ما ادخرنا فى العهود السمينة ويعلم الله أننا ما كنا نا كل بمعشار ما كان ينفق فى الشراب. ثم ساءت صحته، وألح عليه السعال، فكان يسعل الليل بطوله وأنا معه يقظى حتى الصباح. وذات صباح انتبهت من غفوة فلم أجده فى فراشه، فحسبت أنه بدورة المياه، ثم شممت رائحة غاز الاستصباح، فخفت أن يكون صنبوره بالمطبخ بات مفتوحا فذهبت إلى هناك، فوجدت باب المطبخ مغلقاً، فعالجته حتى انفتح، وتراجعت إلى الوراء خشية الغاز السام، ثم نظرت أمامى فرأيت... وياهول مارأيت...» وغطت وجهها بكلتا راحتيها وزلزل صدرها بنهنهة خفت أن تحطمه. قالت: «رأيته ممدداً فى أرض المطبخ وقد استنشق من الغاز القاتل حتى قضى الأمر».

ثم كفكفت عبراتها، وهدأ صدرها، وجلسنا واجمين صامتين، كأنما الميت ممدد أمامنا ونحن لجلال الموت فى خشوع. أردت أن أقول شيئاً أنفس به عنها فلم أجد ماأقول، وماذا يقال فى رجل قتل عقله بالشراب، وقتل نفسه بالغاز، عمد إلى أنفس ما أعطاه الله، وإلى أقدس ما أعطاه الله فدمرهما، ومرغ معه فى رغام التعاسة سيدة فاضله وأطفالا بيض الصحائف.

وحان وقت انصراف السيدة، فجلست وحدى، أنظر إلى نار الفحم، وإنها لأبرد من نار الصدور، وذهب بى الخيال مذاهب عجيبة، حتى لقد خلت أنى أرى الشيطان نحيف الوجه مستطيله محروق الجلد طويل الأصابع أحمر العينين، فى مجلس من أعوانه، فى جوف بركان خامد، أول ظهور الانسان على الأرض، قرض الشيطان بأنيابه المعوجة وقال: «ماذا ترون فى الدمية التى صنع الله؟» مشيراً بإبهامه إلى أعلى حيث سطح الأرض. قال أحد الأعوان: «إن فى رأس تلك الدمية جوهرة تغشى بصرى، لو اعتنى بها ذلك المخلوق، وتبع ضياءها ببصره، كاد أن يرى الله جهرة!». فازداد قرض الشيطان بأنيابه وصاح: «أريد جديداً أيها الأبله». فسكت الجميع زمناً ثم عاد الذى تكلم فقال: «والله ما أحسب ذلك المخلوق إلا مفلتاً من أيدينا بجوهرته تلك، فهى خليقة أن تسمو به إلى حيث النور، ولا يبقى فى الظلام خائباً منبوذاً إلا نحن».

فوثب عليه الشيطان وثبة فر أمامها فأخطأته. ثم عاد الشيطان إلى مقعده والشرر يتطاير من عينيه، وإذا بجنى يهبط عليهم من فوهة البركان وهو يصيح: «أحطت بما لم تحيطوا به، وجئتكم بنبأ عظيم» فصاح به الشيطان: «والله لقد كنت أنتظرك أيها الملعون لأقطع أوصالك بعد هذا الغياب الطويل. قل فلعل عندك ما يشفع لك» فشرع الجنى يقول:

«بصرت بقبيل من تلك المخلوقات البغيضة يعيشون فى كهوف هذه الجبال، فتخيرت واحداً منهم قوى الجسم مغرورا، فصرت أزين له الفتك بأقرانه، وفى ذات يوم رأيت امرأته تدق الحب بالحجر لتطحنه، ثم وضعت الطحن فى حفرة بالصخر وذهبت لبعض شأنها، فزينت لأولادها العبث، فحملوا الماء وكفأوه على الطحن، ثم أنسيت المرأة طحنها يومين ليفسد، فتصاعد منه ريح خانق. وفى اليوم الثالث حضر الرجل من الصيد ظمئا يلهث، ونادى على المرأة لتسقيه ولم تكن المرأة بالكهف، فثار ثائره، وبحث عن ماء فلم يجد فانتهزت الفرصة وأرشدته إلى حفرة الماء والطحن ليشرب مما بها فيتسمم فيموت، فلما بلغ الحفرة نظر فيها وعاف رائحتها فزينت له الشرب منها، وكان ظمؤه بالغا، فشرب قليلا وسكت ثم عاد يشرب حتى امتلأ، وأنا أكاد أطير من الفرح، ثم رأيته يقوم مترنحاً يضحك ملء شدقيه، فعجبت، وإذا به يسير بين الكهوف يجرى وراء النساء كالمجنون فيهربن منه مذعورات، ثم لقى امرأته فهجم عليها كالوحش وقتلها شر قتلة. ثم أخذ يقتل كل من صادفه من الرجال ويعتدى على النساء. ذلك الذى حسبته سيموت قد ازداد قوة وجرأة، وأخيراً ارتمى فنام، ثم صحا بعد ساعات فرجع اليه صوابه كما كان، فعلمت أن ذلك الشراب يفقد الرجل عقله إلى حين.

عاد الرجل الى كهفه، فلما رأى الخابية مال عليها يكرع وأعاد سيرة الأمس، وتحدث أهل القبيل بهذا الأمر العجيب فجاء الرجال وكرعوا من الخابية، وجنوا مثل صاحبهم، وقد تركتهم ولا عمل لهم إلا صنع ذلك الشراب والعبث منه، وتهتيك النساء، وتقتيل الرجال ولا أحسب قبيلهم بعد قليل

على الطلول الماضى

ساعة فى ... «سُرَّ مَنْ رَأَى»

« فى السنة الآتية يكون قد مر على انشاء
سر من رأى ألف ومائة سنة » ع .

... الآن رجعت من التاريخ. إنى أرى الدنيا صغيرة خابية لأنى كنت فى دنيا أكبر منها وأحفل بالنور والعطر : كنت فى « سر من رأى » !

* * *

جلست أدون رحلتى إلى الحلة « دمشق العراق » ، ووقوفى على أنقاض بابل « أخت الدهر » ، وزيارتى السدة الهندية « والقناطر الخيرية الثانية » ، وما أولانى الحليون من ألوان المنن وأنواع الكرم ... فلم أكد أمضى فى المقالة حتى عرضت لى رحلة جديدة إلى سرمن رأى ... ومنذا الذى لا تفتنه سر من رأى ، ولا تهيج بلابل أشواقه ؟ ومنذا الذى نظر فى كتب التاريخ أو شدا بشىء من الأدب ثم لا يعرفها ولا يحس أن لها صلة بنفسه ؟

رددوا هذا الاسم الجميل عشر مرات بصوت خافت كأنه مناجاة النفس ، ببطء كأنه هجس الضمير ، وأنتم تنظرون بعيونكم إلى بعيد ، تحدقون فى غير شىء ، فعل من يتذكر أمراً ، ثم انظروا كم يثير فى نفوسكم من ذكر وحوادث ، وفكر وعواطف ، أقل ما توصف به ، أنها لا توصف ، وكيف تحتويها كلمات وهى عالم ؟ وكيف تنتظمها لغة الأرض وهى من لغة السماء ؟ ومتى كان الانسان ناطقا مبينا ؟ إن هذه اللغة رموز ضئيلة ، لكائنات عظيمة ؛ إن العواطف مئات ومئات وما ثم إلا كلمة واحدة ... وكذلك الجمال والحب والطبيعة ... لا . إن الانسان لا يزال طفلا لم يتعلم النطق ولم يحسن البيان !

* * *

سر من رأى ، وما سر من رأى ؟ هى التى نهضت لبغداد لما كانت بغداد عاصمة الأرض . ولما بلغت غاية المجد وأبعد الأمانى ، وبذت كل مدنية ، وكان فيها مليونان من السكان ، وكان فيها العلم والفن والسلطان ... نهضت لها تزاحمها وتنافسها ، فلم تكن إلا ليال حتى غلبتها وبهرتها ، وتربعت على دجلة من فوقها ، وسلبتها خليفتها وأبهتها وجلة أبنائها ، وكانت أجل منها وأعظم

سر من رأى ، المدينة الملوكية ، التى ولدت فجأة فاذا هى أجل المدن ، وإذا فى كل ناحية منها عرش ، وفى كل بقعة منها عرش ، وإذا هى تتشح بالنور وتتضمخ بالعطر ، وتنام على الزهر ، وإذا هى تبلغ مالم تبلغه من بعد الزهراء المدهشة ، ولا فرساى ...

ثم ماتت فجأة ، فاذا كل ذلك حلم سريع وبرق خاطف . لم تعش إلا نحو خمسين سنة ، (٨٣٨ — ٨٨٣) وما خمسون سنة فى عمر المدن ، إلا خمسون دقيقة ، أفرأيت الجميلة التى ولدت بأعجوبة ، فاذا هى الغادة الفتانة ، ثم إذا هى تقضى بعد ساعة ؟

لم تكد تزدهر وتستقر حتى نودى فيها بالرحيل والرجوع إلى بغداد ، فهب الناس مذعورين ، يحملون ماخف حمله وغلا ثمنه وتركوا المدينة العظيمة للرياح والوحوش واللصوص ...

* * *

قرأت ذلك من حديثها ، ثم لم أعد أعرف عنها شيئا ، ولم أدر ماصنع الدهر بها ... وأين من يسأل عن الآثار ويبحث عنها ؟ ومن يعرف اليوم ماذا جرى بالكوفة ومسجدها ؟ والبصرة ومربدها ؟ أو يعلم صفة القادسية أو اليرموك ؟ من يسأل عنها وهذا مسجد بغداد العظيم ، مسجدها الجامع ، قد ابتلعته الدور وطفت عليه فلم يبق منه إلا منارته التى تقوم منحنية تبكى هذا المجد العظيم وهذا الماضى الفخم ، وتنادى لو وجدت سميعاً : وما كان ذنب هذا المسجد ، وما كان ذنب هذه الآثار ، إلا أننا نحن وارثوها لا الفرنسيس ولا الانكليز ، أولئك الذين لم يدعوا فى بلادهم شبراً من الأرض فيه جمال من جمال الطبيعة ، أو أثر من آثار الماضى ، إلا كتب عنه مؤرخوهم ، ووصفه أدباؤهم ، وصوره

إلا صائر أثراً بعد عين ،

فما إن سمع الشيطان هذا الحديث حتى وثب على المتكلم ولكن ليعانقه ويقبله . وتصايح الجمع صيحات الفرح ، وأخذوا يرقصون ويقفزون . ثم رفع الشيطان يده فسكتوا . فقال : « أيها الاخوان ! لقد تجدد أملكم بذلك الشراب العجيب فانفروا إلى سطح الأرض . وانتشروا فى المشارق والمغارب ، وعلموا العدو الأبله صنع الشراب ، وزينوا له شربه ، فسيفرح الغبى به ، ويذيب منه جوهرته اللعينة ، فاذا شربه صار لعبة فى أيدينا ، وإذا أفاق اشتاق اليه فلا نزال به حتى نهلك منه الروح والجسد جميعا ، قولوا معى أيها الاخوان : لتحى الخمر .

فتدفقوا وهم يرددون هذا الهتاف ، ولا يزال هذا هتافهم إلى اليوم .

عبد المغنى على حسين

مصورهم ، ونحن الذين أضعنا آثارنا الجليلة ، وهدمناها بأيدينا لنبني بأنقاضها دورنا الحقيرة !

أسمعتم بالمدرسة النظامية التي درس فيها حجة الاسلام الغزالي والتي كانت من أكبر جامعات القرون الوسطى ؟ أتدرون ماذا بقي منها ؟ منارة مهدمة طولها أربعة أمتار ، في زقاق عرضه ثلاثة أمتار ، عند جامع مرجان في بغداد ، والمنارة مائلة قد انحنت تحت أثقال دار قد ركبتها ، وربما هدمت المنارة لتقام عليها الدار ، فمن يدري ؟ وأين من يدرس الآثار ويعنى بها ؟ وهذا قصر الخضراء في دمشق ، مابقي منه إلا اسمه تحمله مصبغة ، في زقاق القباقيب . يالعجائب الزمان ! صار مثوى التاج ومحط العرش زقاق القباقيب ... فمن سأل عنه ؟ ومن وصفه ؟ ومن حفر في أنقاضه ؟ أما لو أن هذه الآثار كانت لغيرنا ، إذن لحرقت هذه البقاع حرقا ثم أخرجت كنوزها ، ثم ملأت نفوس أهلها عزة ، ثم كانت لهم أجنحة يطيرون بها في معارج العلاء ... إن تحت هذه الأرض علما ومجدا وجلالا ، ولكن ليس فوقها من يحفل العلم والمجد والجلال !

أو ليس من أعجب العجب ، ياقومي ، أن آثارنا لم يبحث عنها ولم يكشفها إلا هؤلاء الأوربيون ؟ إن في دمشق قريتين هما معلولا وجبعدين تتكلمان السريانية منذ خلقتا ، فما فكر أحد في درس هذه اللغة ومعرفتها ، حتى جاء هذا المستشرق الشاب ، رايخ النمسوي من آخر الدنيا ليدرسها ... بل هذه هي سر من رأى ، ما نقب فيها وكشفها للناس إلا هرسفلد الالماني ، الذي حفر فيها سنة ١٩١١ كلها وبعض سنة ١٩١٣ باشارة من أستاذه ساره (Sarre) وبنفقة المصرف الألماني وبعض كبار الألمان . بدأ الحفر في قصر المتوكل ثم انتقل إلى الجوسق ، وإلى القصر المعروف بقصر العاشق ، واستخرج من هذه البقعة الصغيرة كرائم الآثار ونفائس الأعلاق ، التي انتقلت إلى ألمانيا ، وبقيت لدينا نسخ معدودة من هذا الكتاب الجليل الذي أخرجه هرسفلد في مجلدات كثيرة فيه صور هذه الآثار باهرة مدهشة حقا ؛ وهو يصف في المجلد الأول نقوش الجدران وزخارفها ، ويقول انه لم تكن تخلو دار من هذه النقوش الجصية البارزة الملونة أحيانا ؛ وفي الثالث الرسوم والصور ، وأكثر هذه الصور مما وجد في حمام الجوسق ، وقد حلت هذه الصور مشكلة قصر المشتى الذي كشف سنة ١٩٠٨ ، ويتحدث في جزء عن الأواني الزجاجية والخزفية ، وقد ظهر أنه كان في سر من رأى معمل للزجاج ، ومعمل للأقمشة وجدت بعض قطع ملونة من مصنوعاته .

ومن أهم ماتمتاز به المدينة شوارعها ، التي لاتكاد تحوي مثلها (اليوم) مدينة في العالم ، فقد كانت كلها مستقيمة متقاطعة بانتظام عجيب ، والشارع الأعظم ، (وآثاره باقية) يمتد بعرض مائة متر ، ودورها التي كان أكثرها كبيراً فيه خمسون غرفة ، وفيه مجار للماء وبرك ، ومجار أخرى للماء القذر ، وحمامات وسراديب للصيف مبنية على نظام يكفل لها حسن التهوية ، وكان أكثر الدور على طراز واحد ، فهي ذات ردهتين : ردهة حيال الباب تفضي إلى ردهة أخرى مستطيلة ، عمودية عليها والغرف من حولها



بقايا القصر المسمى بقصر العاشق

وقد صحب هرسفلد رجل عسكري يدعى (لودلوف) متخصص برسم المصورات ، صنع خريطة للمدينة مفصلة بنسبة ١ : ٢٥٠٠٠ وصحبه رجلان مختصان بالنقوش هما (بارتوس وييجر) على أن ما كشفه هرسفلد لايعد شيئاً ، والمتحف العراقي عامل على موالاة التنقيب في الآثار ، وجمعها في متحف الآثار العربية ، وينتظر ظهور أشياء هائلة

* * *

سرنا إلى (سر من رأى) في قافلة مؤلفة من كبار طلاب (دار المعلمين العالية في بغداد) والدكتور كامل بك عياد (أستاذ التاريخ الاسلامي في الدار) و . . أنا ، فجزنا بالأعظمية ، وعبرنا النهر إلى الكاظمية ، ثم استقبلنا الفضاء .

ولم نقف في الطريق إلا على جسر حربى ، وهو جسر قائم في الفلاة ذو ثلاث قناطر . عليه كتابة ظاهرة تدل على أنه بني في أواخر العهد العباسي على نهر دجيل ليسقي مدينة حربى ، فتلفتنا فاذا النهر قد جف والمدينة قد محيت والعهد العباسي قد انقضى ، وإذا كل بلاد الله تتقدم وتزداد عمارة ، وبلادنا تتأخر وتمعن في الخراب فوقفنا معتبرين . ومضينا مستعبرين .

ولم نسر من بعد إلا قليلا حتى طلعت علينا (الملوية) وهي

منارة جامع المتوكل ، عالية تبدو من بعيد كالصرح الهائل ، وقد شبهت مكانها من سر من رأى ، ببرج ايفل من باريز، فهى علم البلد ورمزه . ثم بلغنا دجلة فعبرناه . ودخلنا (قرية) سامراء لنستريح فى مدرستها ساعة بعد مسيرة ثلاث ساعات فى السيارة . ثم ولجنا حرم التاريخ ، يصحبنا معلمو المدرسة الذين أولونا من أياديهم وأرونا من كرمهم وحسن أخلاقهم ، ما نذكره لهم بالشكر ، فلولاهم ما رأينا شيئاً ، ولا عرفنا من أين ندخل أو نخرج فى هذا العالم الواسع !

إى والله . هو عالم ، هو شىء عظيم جداً .

سرنا أكثر من خمسة وعشرين كيلا ، وما قطعنا إلا نصف البلد من المسجد الجامع إلى الدور العليا ، وإن إلى الدور السفلى لمثلها ، وإن هذا كله لنصف المدينة ، وعلى الضفة الأخرى مثله

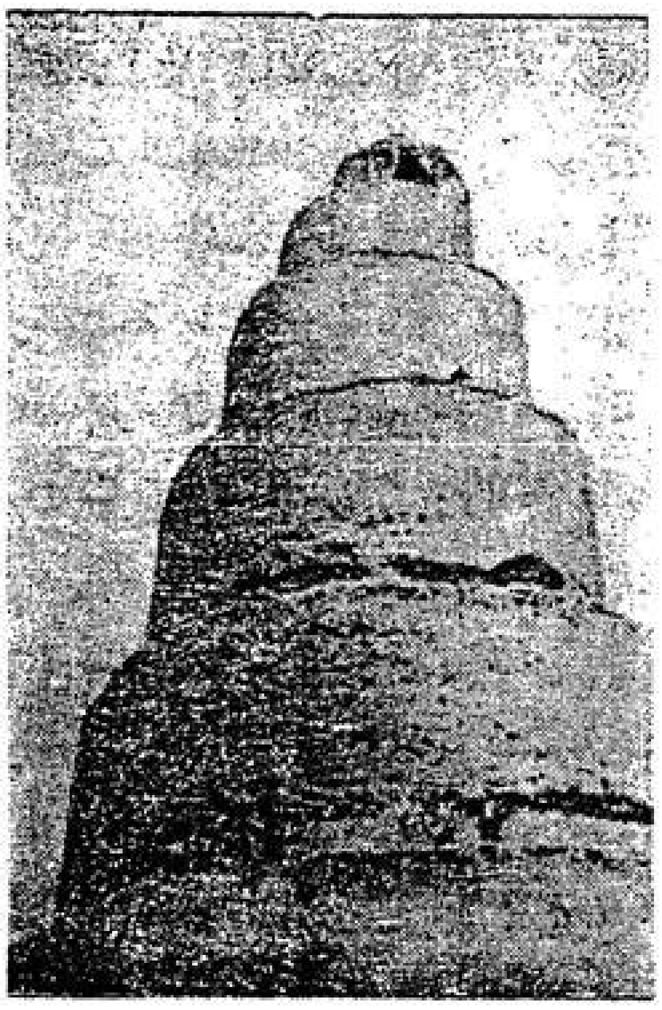
أنا لا أستطيع أن أتصور كيف كانت هذه البرية الواسعة التى يضل فيها البصر ، مدينة عامرة ، وكيف كان الناس يقطعونها ، وان بين أولها وآخرها اليوم لمسيرة اثنتى عشرة ساعة على الراكب



جسر حربى

* * *

كان أول ما رأينا المسجد الجامع ، وهو كبير جداً لو وضعت سامراء الحاضرة فيه لوسعها وفضل عنها ، لم يبق منه إلا السور وهو مبنى من اللبن مثل سائر الأبنية العراقية ، تدعمه من ظاهره أبراج مستديرة ، ووراء السور المنارة ، وتعرف عند الناس بالملوية أى المستديرة ، وهى حلزونية الشكل سلمها من ظاهرها ، مؤلفة من سبع طبقات ، ارتفاعها (٧٥) متراً ، وتحتها قاعدة مربعة أقيمت حديثاً لتقويتها ، طول الضلع من أضلاعها (٤٠) متراً ، فصار ارتفاع المنارة قريباً من (٨٥) متراً وقد بنيت على غرارها منارة جامع ابن طولون فى القاهرة ، ثم تركت هذه الصفة فى المآذن واتخذ لها سلم من جوفها



منارة سامرا (الملوية) وتبدو فى الصورة الاربع طبقات العليا وهى مؤلفة من سبع طبقات ارتفاعها ٨٥ مترا

* * *

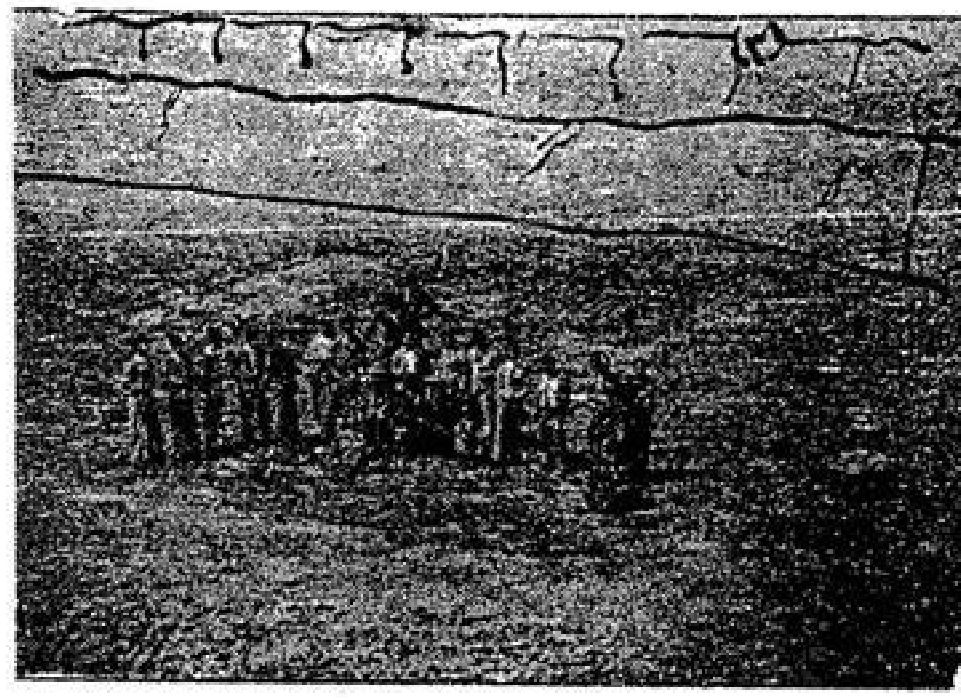
تركنا المسجد وسرنا فى وجهة واحدة ، كيلا نضل فى وسط هذه الاطلال ، وكان حولنا تلال من التراب ، كانت قبل ألف ومائة سنة ، دوراً عامرة ، وقصوراً فخمة ، فجزنا بها حتى بلغنا أنقاضاً حولها سور كبير ، أخبرنا بها معلم المدرسة أنها أنقاض قصر أم عيسى ابنة الواثق ، وعلا بنا على تل عال وقال : انظروا ، فنظرت فلم أر إلا برية واسعة ، لاشىء فيها . . . فقال : امعن النظر ، وحدق فى الأرض ، ففعلت فرأيت شيئاً أدهشنى ، وخفق له قلبى ، رأيت تلالا صغيرة منتظمة ، على شكل دوائر متقاطعة على نمط هندسى بديع ، تمتد إلى مالا يدرك البصر آخره ... فقلت وأنا مشدوه : ويحك ماهذا ؟ قال : حديقة !

وأى حديقة هى ؟ حسبى أن أقول : إنها شىء هائل !

* * *

ومضينا . . . نمر على الأطلال . حتى بلغنا آثار سور كبير جداً كأنه سور مدينة . . . فقال دليلنا : هذا بلاط الخليفة ، فترجلنا وسرنا فى طريق مبلطة باقية آثارها ، ونحن نتخيل كم مر فى هذه الطرقات من خلفاء وأمراء ، وكم شهدت من جلال وجمال ، حتى بلغنا مصيف المتوكل ، وهو أول ما استقبلنا من القصور ، ونسيت أن أقول إن البلاط بلدة واسعة ، فيها عشرات القصور تبدو أنقاضها ناطقة بعظمتها ، وفيها مسجد كبير ، وفيها البركة المتوكلية المشهورة ، بركة البحترى ، فولجنا المصيف ، وهو قصر كبير تحت الأرض ، به غرفة محفورة فيها حفراً ، وهى متصلة بفضى بعضها

إلى بعض ، ولها نوافذ كثيرة ، تضمن لها حسن التهوية ، وفي وسط القصر بركة . . . وقد كدنا نهلك من حرارة الشمس ونحن فوق الأرض ، فلما هبطنا إلى جوف القصر كدنا نهلك من البرد . . .



في وسط بركة المتوكل
الخط (١) يمثل استدارة البركة وسعتها الخط (٢) يمثل عمقها
(٣) آثار الغرف التي كانت على جوانبها

وكان الصديق الأستاذ كامل بك يسرد فلسفته العلمية ويقص علينا قصة القصر وبناءه ، وفنه وقيمته التاريخية، ولكن واحداً منا لم يكن يصغي أو يفهم شيئاً مما يقول . . . فكيف وعلم أن الكلام الآن للقلب وعواطفه الحية ، لا للعقل ومقاييسه الجافة ، وفلسفته الباردة ...

كنا نتخيل هذا القصر ، وقد كان يعج بالحياة ، ويفيض بالحب ؛ كنا نسمع الأصوات ، ونبصر الألوان ، ونشم عبق العطر ونحس كأنا نرى الخليفة ونشهد مجالس الأدب والغناء ، وخلوات الحب . .

كم عاش في هذا المكان من عواطف ! كم خفقت فيه من قلوب ! كم امتلأ بالحياة . . . أفيودي ذلك كله بمثل هذه السرعة وهذه السهولة ، ويشمله العدم ولا يبقى له وجود قط ؟

أي امرىء عرف الحب ، وكابده وأدرك معناه ، ثم يؤمن بأن العدم يقوى عليه ؟ لا . إن ذلك كله موجود ! موجود في زاوية من زوايا هذا الكون الفسيح ، إنه خالد لا يفنى أبدا ، إن في هذا القصر ذكريات جمة ، تحتويها هذه الجدران الخرساء ، وهذا اللبن البارد ، إن فيه صدى تلك الهمسات التي كانت تتناجى بها الشفاه ؛ إن فيه خفقات تلك القلوب ؛ إن فيه رنات تلك القبل .

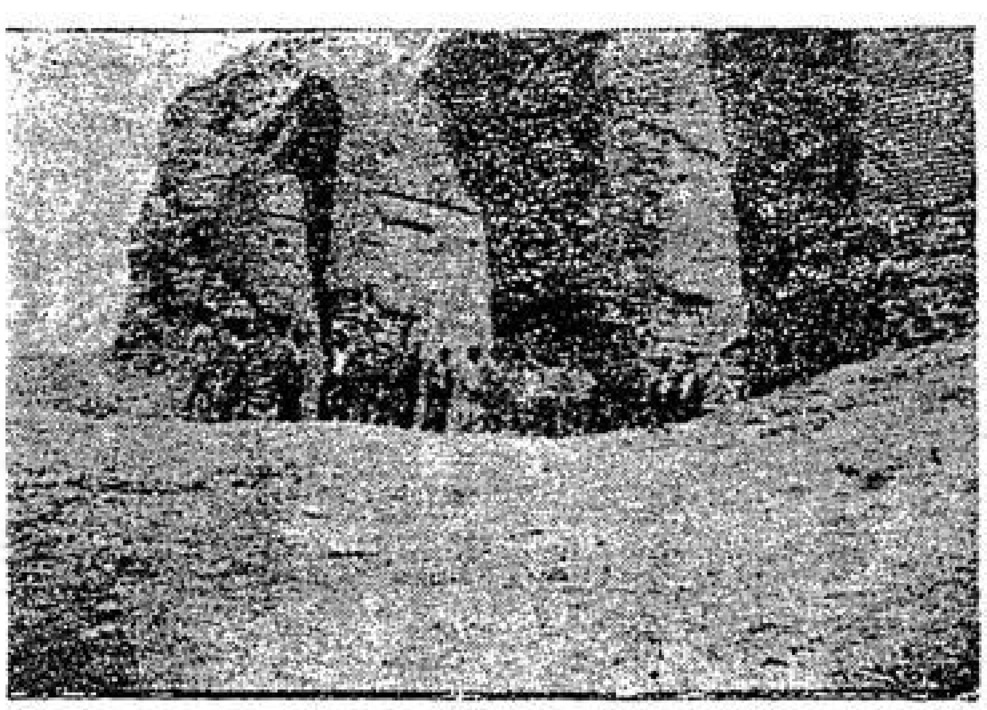
إن سؤال الديار ، واستخبار الأطلال ، أقدم فنون الشعر العربي ، فهل ترى الشعراء كلهم مجانين ؟ أتراهم كانوا عابثين ؟

لا . إن في هذه الأطلال لحياة . . . إن كل شيء في الوجود حي يذكر ويأمل ويشعر ويحلم ، ولكنه لا ينطق ولا يفكر . . . آه . . . لو أن هذه الجدران كانت تنطق ، وتتحدث وتصف ما تشعر به . . .

وخرجنا من القصر ، ونحن نحس كأنا قد خرجنا من أنفسنا وانتقلنا إلى عالم آخر ، عالم تمتزج فيه الأحلام بالحقيقة ؛ عالم شعري ساحر . . . فمررنا على جب واسع للماء خبرنا دليلنا أن بعض الجاهلين من الأدلاء والتراجمة يدعون بأنه سجن ، ويختلقون حوله الأكاذيب ... وهؤلاء الأدلاء والتراجمة بلاء أزرق ، وقد سمعت واحداً منهم يشرح لبعض الأفرنج تاريخ المسجد الأموي في دمشق ، فقال لهم مانصه : « هذه هي المنارة التي بناها الوليد بن هارون الرشيد لسيدنا عيسى ، ولذلك سميت منارة عيسى » وهم يكتبون في دفاترهم ما يقول ، فينشرونه على أنه كتاب علمي عن الشرق وأهله ، وليس العهد ببعيد بتلك الكاتبة الفرنسية التي كتبت كتابا عن دمشق قالت فيه : ويخرج أهل دمشق كل مساء لزيارة قبر النبي في مكة القريبة من دمشق ! !

***

أقول إننا سرنا إلى مسجد القصر . وقد حفر فيه هرسفلد واستخرج منه آثاراً رخامية ومحراباً جميلا حملها إلى ألمانيا ثم انتهينا إلى البركة ، ولست أكتم القراء أني كنت أظن أن البحتري يبالغ في وصفها ، على طريقة الشعراء الخياليين وأقرر ذلك في دروسي ، وأقول ما عسى أن تبلغ هذه البركة ، حتى تظل دجلة كالغيرى منها تنافسها وتباهيها ، وحتى تبدو في الليل كأن سماء ركبت فيها ، وحتى أن السمك المحصور لا يبلغ غايتها لبعد ما بين قاصيها ودانيها ؟ فلما رأيت انقاضها رأيت شيئاً عظيما . رأيت بحراً ، رأيت ميدان سباق ، دائرة قطرها نحو مائتي متر ، فأكبرتها وهي جافة فكيف لو رأيتها وهي ممتلئة بالماء ، ومن حولها الغرف المفروشة المزخرفة ، وقد عقد فيها مجلس الخليفة ، إذن لرأيت أكثر مما قال البحتري ، فرحم الله الشاعر وألهم شعراءنا تخليد ما يرون من جمال بلادهم ، وعظمة مصانعهم ، على نحو ما خلد البحتري البركة ، والجعفري وطاق كسرى !



قصر الخلافة (منظر جانبي)

ثم سرنا إلى قصر الخليفة الرسمي ووقفنا في إيوانه الكبير ، وهو بني على شكل إيوان كسرى ، ولكنه أجمل وأصغر ، وقفنا صامتين خاشعين تتقاذفنا عواطف وذكريات لا يدرى مداها ، نتخيل هذا الايوان وكم عقد فيه من مجالس ، وكم وقف فيه من ملوك ، وكم كتب فيه من تاريخ ، نبصر المعتصم وقد أخذ كأسه ليشرب فأبلغوه أن امرأة مسلمة أسيرة في بلاد الروم صاحت : وامعتصماه .

امرأة أسيرة ، وأمير المؤمنين يشرب كأسه هانئاً ؟ امرأة تنادي : وامعتصماه ، والمعتصم لا يجيب ؟ إن هذا لن يكون



بقايا قصر الخلافة في سر من رأى

ونرى المعتصم يخرج في الجيش اللجب الذي تضطرب له سر من رأى ، وتميد لثقله الأرض ، وتصعق لهوله المردة ، وترتجف الرواسي ، حتى يحط على عمورية ، فيدكها دكا ويعود مثقلا بالمجد والظفر والغنائم .

ونسمع أبا تمام ينشد آيته الخالدة .

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... منك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاسلام في صعد ... والمشركين ودار الشرك في صبب

ثم أنظر حولي فأرى كل شيء قد تبدل

تغير حسن (الجعفري) وأنسه ... وقوض بادي الجعفري وحاضره
تحمل عنه ساكنوه فجاءة ... فعادت سواء دوره ومقابره
إذا نحن زرناه أجد لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يبهج زائره
(غدا موحشا قفرا) كأن لم يقم به ... أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقة ... بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها ... وبهجتها والعيش غض مكاسره
فإن الحجاب الصعب حيث تمنعت ... بهيبتها أبوابه ومفاخره
وأين عميد الناس في كل نوبة ... تنوب وناهي الدهر فيهم وآمره

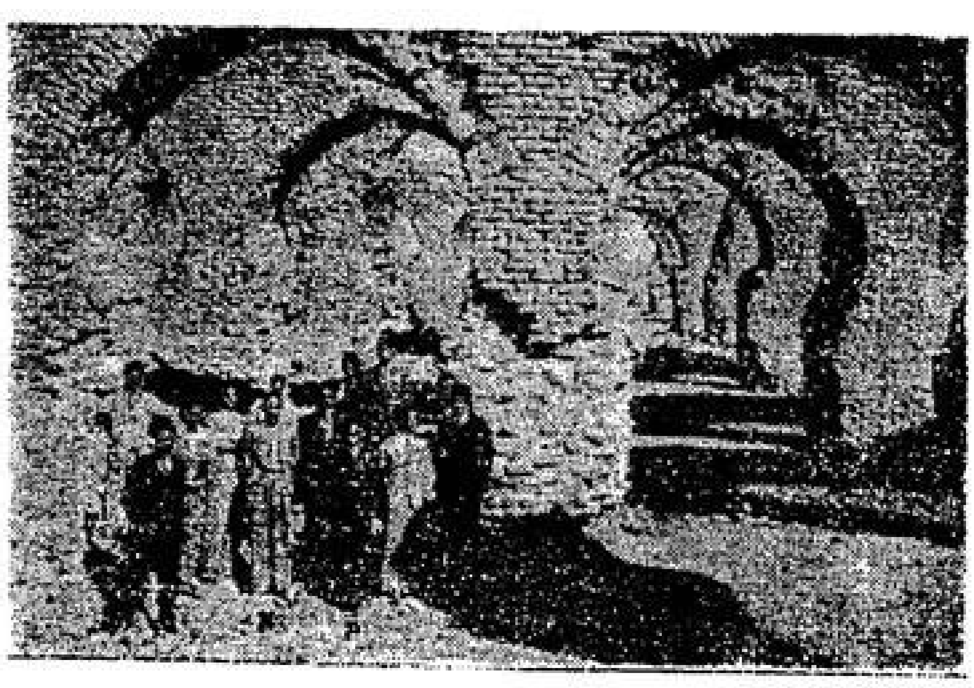
لقد هجر الحياة . ونأى عن النعيم ، وجفاه ... حتى دجلة ... دجلة أعرضت عن القصر ، ونأت عنه وقد كانت تسيل على أعتابه . وجفته وكانت مع الدهر الدوار . . . والزمان الغدار ، حتى دجلة التي أفاضوا عليها المجد ، ووضعوا فيها الحياة ، وأعطوها أكثر مما أخذوا منها ... حتى دجلة التي تجري منذ ملايين السنين ، فلم تجد أكرم ولا أعز ولا أعظم ، من أصحاب هذا القصر وبناته . . .

حتى دجلة نسيت وكانت (١) ! !

* * *

ثم ودعنا البلاط وسرنا ـ وقد أودعناه قلوبنا وصببنا فيه نفوسنا ودموعنا ... سرنا في الشارع الأعظم نصف ساعة في السيارة ـ وقد رأيناه بيناً ، عرضه مائة متر والشوارع تتفرع عنه في نظام عجيب ، وهندسة محكمة ـ والبيوت قائمة على الجانبين وقد استحال أثرها إلى تلال من التراب كأنها القبور . . .

فمررنا على معسكر أشناس ، وهو أشبه بميدان فسيح جداً حوله سور . حتى انتهينا إلى المسجد المعروف اليوم بجامع أبي دلف وهو أكبر من مسجد المتوكل وفيه رواق قائم على خمس قناطر ومنارة كالملوية ولكنها أصغر منها . فوقفنا عليه .



قسم من رواق جامع أبي دلف في سامرا

وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ، فانتهت الرحلة هنا ، وعدنا ونحن صامتون خاشعون . . .

وقد علمنا لماذا يريدون منا أن نتجرد من ماضينا .

لأننا لا نستطيع أن نبني المستقبل الفخم ، إلا على انقاض الماضي الفخم

(بغداد) **علي الطنطاوي**

(١) وحيال القصر من الجهة الاخرى آثار قصر عظيم لم أعرف تاريخه بالضبط ولا لمن هو ـ يدعى اليوم قصر العاشق وبين القصرين آثار سد هائل في دجلة لاتزال إلى اليوم

تلخيص وتعليق

أسبوع الجاحظ

لمندوب الرسالة

بقية المنشور في العدد الماضي

اليوم الرابع

كتابا الحيوان، والبيان والتبيين هما أهم ما للجاحظ من الآثار التي وصلتنا، والتي انتفع بها الكتاب والأدباء، ولقد كان اليوم الرابع ميعاداً للقول في هذين الأثرين الكبيرين، وكان درس الحيوان منوطاً بالأستاذ «كراوس»، وكان الكلام في البيان والتبيين على الأستاذ مصطفى السقا.

وقد تكلم الأستاذ كراوس عن الحيوان كلاما مستفيضاً فوضح غرضه وأهميته، واهتم كثيراً بتحقيق الصلة بينه وبين كتاب الحيوان لأرسطو فقال: إن أبا منصور البغدادى قد ذكر أن الجاحظ لم يعمل شيئاً إلا ان سلخ معانى كتاب الحيوان لأرسطو، ثم ضم اليه ماذكره المدائنى من حكم العرب وأشعارها فى منافع الحيوان، ولكن البغدادى هذا كان يطعن على الجاحظ، وكان كثير النيل منه، فقوله قول خصم لايصح أن نقبله على علاته، ونحن وان كنا نعتقد أن الجاحظ قد اتصل بالثقافة اليونانية ووقف على آراء أرسطو فى الحيوان، إلا أننا نعتقد أنه ألف كتابه ليعارض كتاب أرسطو، وليقيم الدليل للشعوبية على أن العرب أصحاب علم ومعرفة كسائر الأمم، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك إذ يقول فى مقدمة الحيوان: «وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا، وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب كما يشتهيه الجد، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب»

ولذلك كان الجاحظ يهتم كثيرا بحشد أشعار العرب وأقوالهم وحكمهم فى الحيوان، كما كان يهتم بالسخر من أقوال صاحب المنطق والضحك منها، فالبغدادى قد غبن الجاحظ وتجنى عليه وتنقصه بغير حق

وتكلم الأستاذ السقا من بعد ذلك عن البيان والتبيين فقدم بين يدى الموضوع كلاماً طويلا يتصل بشخصه أكثر مما يتصل بأمر الكتاب، فذكر أيامه فى دار العلوم وهو طالب، وقال: إنه كان يكره البيان والتبيين ويستثقله وينفر منه، حتى حببه إلى نفسه نصيحة أستاذ مخلص، فأقبل عليه وانتفع به فى ثقافته الأدبية، وبلغ من إعجابه به أن كان يعاود قراءته، ثم عرض لموضوع الكتاب وذكر أبوابه وفصوله، وتكلم فى أسلوبه وطريقته وأفرغ عليه كثيرا من الثناء والتمجيد، ومن العجب أنه ذكر تعريف الانسان الذى نقله الجاحظ عن ارسطو فقال: إنه الحى الميت!! وقد سمعناه يعيده ثانية بهذا النص، وإنما هو الحى المبين على ما نعرف، ولكنه نطق التعريف كما جاء محرفا فى الكتاب!!

اليوم الخامس

وكان القول فيه للأستاذين ابراهيم مصطفى وأحمد الشايب، وكان موضوع الكلام للأستاذ ابراهيم مصطفى عن «دعابة الجاحظ»، وقد التبست الدعابة بالدعابة على السامعين، فانتظروا من الأستاذ أن يفيض عليهم من فكاهات الجاحظ ونوادره ولكنهم دهشوا إذ رأوه لايمس ذلك ولا يتقرب اليه، فجاؤا باللوم العنيف على الأستاذ، وقالوا: إنه أهمل موضوعه وخرج عليه، وما كان مبعث هذا كله إلا تلك «النقطة» الخبيثة التى أهملتها يد الطابع، فأساء إلى الأستاذ وأساء إلى السامعين!

وقد ابتدأ الأستاذ القول فى دعابة الجاحظ بما كان بينه وبين أبى هفان اذ قيل لأبى هفان: لم لاتهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك؟! فقال: أمثلى يخدع عن عقله؟! والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة!

وعلق الأستاذ على هذه النادرة فقال: ونحن اذا تأملنا هذه النادرة نجد أن أبا هفان الشاعر قد تراجع أمام الجاحظ الناثر، أو بالأحرى نجد الشعر قد انهزم أمام النثر، ذلك لأن

الجاحظ قد نصر النثر علي الشعر ، فاستخدمه فى موضوعات لم تكن له من قبل ، وراضه على سبل استعصت على الكتاب السابقين ، ثم إن الجاحظ فى نثره قد اهتم بالتقرب من الجمهور ما استطاع ، فأخذ يطرق الأمور التى تشغل بالهم ، ويكتب فى المعانى والأغراض التى تحيط بهم فى حياتهم الأدبية والاجتماعية والأخلاقية والدينية ، ولما قامت الفتنة بين المأمون والأمين واندفع الناس فى تيار تلك الفتنة ، كان ذلك مما مكن الصلة بين الجاحظ والجمهور ، لأنه ابتدأ يؤلف لهم فى هذا الذى انصرفت اليه عقولهم ، فكتب كتاب الإمامة لهم ، فوقع عندهم الموقع الحسن ، وقد قرظه المأمون وأثنى عليه ، وإن تقريظ المأمون فى الواقع لأدق وصف لكتب الجاحظ وكتاباته .

على أن الجاحظ فى تقربه من الجمهور والعامة لم يكن الا متبعا لتعاليم المعتزلة الذين أخذوا يعملون لدفع الجمهور للعلم ، وتقريب المعارف من نفوسهم بشتى الوسائل الممكنة ، ونحن اذا تأملنا كثيراً من كتبه نجده قد اختار موضوعاتها مما يليق بالجمهور ويروج عندهم مثل كتاب البخلاء

ولقد كان الجاحظ يدخل على نفوس العامة من ناحية أخرى هى ناحية الدعابة والتفكه ، فإنه كان يحفل بذلك ويعتد به ، ولست أذكر من فكاهات الجاحظ وأساليبه فى ذلك ومبلغ قوته فى التصوير ، فإن من قرأ منكم شيئاً من كتب الجاحظ فقد أدرك ذلك وتحققه ، ثم عرض الأستاذ لكتاب التربيع والتدوير فقال : إنه نمط من فكاهة الجاحظ ، ولكنه ملأه بالأسئلة عن اشياء لا تصح ، وفيها ما يدور فى أذهان العامة والجمهور ، ولم يعمل الجاحظ على أن يجيب عنها ، وقد قال الجاحظ فى آخره : فان أردت أن تعرف الفاسد والصحيح من هذه الأسئلة فالزم نفسك باب داري ، وقراءة كتبي [1]

وعرض للجاحظ فى موقفه من المرأة فقال : ان الجاحظ لم يتزوج ولم يؤكد علاقته بالمرأة ، ولكنه قد دافع عنها واكبر من شأنها ، وله كتاب « الحرائر والاماء » كتبه فى مناصرة الاماء والثناء عليهن وتفضيلهن على الحرائر [1]

(١) كأنى بالأستاذ الفاضل لم يتبين الغرض الذى كتب الجاحظ من أجله كتاب التربيع والتدوير ولذلك فهو يؤاخذه بهذه الخرافات التى سردها ، والجاحظ إنما قصد إلى ذلك للتهكم بصاحبه وهو قد أشار إلى ذلك فى أول الكتاب وفى الحيوان ، ثم إنه أورد العبارة الأخيرة على أنها خطاب للقارىء والجاحظ إنما خاطب بها صاحبه .

ثم تكلم عن أسلوب الجاحظ بما هو معروف ، وقال إنه لم يؤثر فى أحد من بعده تأثيراً فنيا ، وإن ابن العميد الذى كان يتعصب للجاحظ ، ويلقب فى ألسنة الأدباء بالجاحظ الثانى لم يكن له من خصائص الجاحظ شىء ، حتى القاضى الفاضل الذى يقول فى كلام له : أما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب الا من دخل من كتبه الحاره ، وشن عليها الغاره ، وخرج على كتفه منها كاره ، لا نعرفه قد تأثر بالجاحظ فى قليل ولا كثير [2] ، ثم أخذ يقارن بين الجاحظ وبين المبرد فى طريقته وأسلوبه ، ولم ينس ثعلبا فى هذه المقارنة . . وانتهى بعد ذلك الى القول بان الجاحظ كان داعية كبيراً ، قد استطاع أن يتصل بالجمهور الى حد بعيد ، وأن يؤدى لنفسه وللمعتزلة من هذه الناحية شيئاً كثيراً ، فكان مثله فى ذلك مثل الصحفى الماهر فى أيامنا الحاضرة [3]

وقام من بعد ذلك الأستاذ أحمد الشايب للكلام فى مآخذ الجاحظ فابتدأ القول بكلام الناس فى ثقافة الجاحظ واتساعها وثنائهم عليه من هذه الناحية ، وقال إن الجاحظ كان واسع المعارف حقا ، قد اتصل بكل النواحى الفكرية والعقلية فى أيامه ، ولكن ثقافته كانت ثقافة عامة أو قل ثقافة صحفية يتلقفها من دكاكين الوراقين ، وقد كان ذلك مذموماً فى عصره حتى كانوا يقولون : هو صحفى اذا أرادوا الذم ، ونحن نرى أن الجاحظ وإن كان قد ألم بكل شىء ولكنه لم يتبحر فى شىء ، فثقافته أخذ من كل شىء بطرف كما يقولون

قال الأستاذ : ولقد أخذت أنظر الجاحظ فى كل ناحية من نواحى ثقافته فما وجدته إلا على ما وصفت ، ثم انتقص كلامه فى الحيوان ، وأورد فى ذلك كلام الباحث الفرنسى كارادفو فى كتابه « مفكرو الاسلام » وقد كان غاية ما حاوله

(١) المعروف للجاحظ كتاب الجواري وكتاب القيان

(٢) فى الواقع أن الجاحظ قد أثر فيمن جاء من بعده تأثيراً كبيراً بأسلوبه وطريقته وثقافته ولعلنا نستطيع أن نكشف هذه الناحية لقراء الرسالة فى بحث شامل

(٣) سمعت الاستاذ ينطق المبرد بالفتح وانما هو بالكسر حتى كان يقول برد الله من برد فى

الأستاذ أن ينتقص جهد الجاحظ وآراءه فى الحيوان والنقد والبلاغة، وفى كل ناحية من النواحى التى كتب فيها. وقال إنه كان ينتهب آراء غيره، وكان يخلط بين النقد والبلاغة، على أن هناك فرقا بين الناحيتين، ولقد كان الجاحظ فى مؤلفاته يثير كثيرا من المشاكل ويمس الأمور المعضلة القائمة فى عصره فيستطيع أن يشخصها ويكيفها ويلقى فيها الأسئلة القوية، ولكنه كان يتركها عند هذا الحد، فلا علاج يشفى، ولا جواب ينتهى بالقارئ إلى رأى حاسم، ولذلك كان من السهل على الجاحظ أن يؤلف فى الشيء وضده وأن يناقض نفسه بنفسه ما دام هو يقف فى ذلك عند الآراء الشائعة والمسائل الذائعة فى كل فرقة. ولقد روى أن أحد الأمراء أرسل إلى الجاحظ يطلب منه أن يحتج له فى رأى، فكتب له الجاحظ بما طلب، فعاد الأمير يقول له: إن الخادم قد غلط فى تبليغ الرسالة اليك وإنما أريد أن تكتب فى نقيض هذا الرأى، فلم يتورع الجاحظ عن أن يكتب له.

قال الأستاذ: وقد كان الجاحظ من المتكلمين، وكان الجدل والكلام فى عصره على غاية ما يكون من الشدة، ولكنى لم أعرفه قد كتب كتاباً فى أصول الجدل أو ألف فى علم الكلام كما كانت تقتضيه وظيفته ويقتضيه عصره (١)، ثم انتقد الجاحظ فى تحقيقه، وأورد كلاماً للمسعودى فى ذلك إذ يقول: زعم الجاحظ أن نهر مكران الذى هو نهر السند من النيل. واستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه، وهذا تحقيق باطل ناقص، لأن الجاحظ أقامه على قياس منطق نظرى فاسد النتيجة ولوطاوعنا الجاحظ فى قياسه لكان كل نهر فيه التماسيح هو من النيل، لأن النيل فيه التماسيح

وكان من رأى الأستاذ أن غاية ما للجاحظ هو الأسلوب ففيه براعته وشخصيته ومميزاته ... ثم انتقده بالتكرار الممل، وقال إن الجاحظ كان يستعمل عبارات ثابتة يكررها كثيراً حتى كأنها «كلشيهات» (٢) فهو ينقلها من كتاب إلى كتاب ومن موضع إلى موضع، ومثل لذلك بكلامه فى اصطناع الكتب إذ أورده فى كتابه الحيوان، وأعاده فى المحاسن والأضداد (١)، وكذلك كلامه عن الحسد وعبارات كثيرة يدركها كل من وقف على كتبه.

اليوم السادس

أما اليوم السادس وهو اليوم الأخير فقد اضطلع به الدكتور طه وحده، وكان عليه أن يملأ فراغه فمد رواق القول على كثير من نواحى الجاحظ مع أن موقفه فى القول كان عند «فكاهة الجاحظ»، فتكلم أولا عن إطراء الأدباء للجاحظ وما يجب أن يكون له من هذا الإطراء؛ ثم تكلم عن دعاية الجاحظ بما تكلم به الأستاذ ابراهيم مصطفى من قبل، فقال إن الجاحظ قد نصر النثر على الشعر، وجعله أقرب وأعذب فى نفوس الجمهور والعامة، ولقد أشرت إلى ذلك فيما كتبته فى تقدمة نقد النثر لقدامة، وقد قلت إن الجاحظ أثر فى ابن الرومى من هذه الناحية، فمهد له طريق التقصى فى المعنى والإسهاب (٢)

ثم تكلم فى فكاهة الجاحظ فقال: ولقد كانت الفكاهة من النواحى البارزة عند الجاحظ، وما كان الرجل يقصد فى فكاهته إلى الضحك والإضحاك فحسب، ولكنه كان يقصد أيضاً إلى التصوير، ويقصد إلى التهكم والسخر، ويقصد إلى النقد والهجاء، وأورد فى الاحتجاج لذلك كلامه فى نقد الخليل ابن أحمد. ثم ذكر بعض فكاهاته فذكر من ذلك قصته مع محمد بن أبى المؤمل البخيل (٣)، ثم انتدب الدكتور محمد عوض ليقرأ أطرافاً من رسالة الجاحظ للمعتصم أو للمتوكل يحضه على تعليم أولاده ضروب العلوم وأنواع الأدب، وفيها كثير من ألوان الدعابة والشعر الفكه (٤)

قال الدكتور: وعندى أن الجاحظ كان كفولتير، فكما أن فولتير لم يكن عالماً فحسب ولا أديبا فحسب ولا فيلسوفا فحسب ولا اجتماعيا فحسب، وانما كان له فى كل هذا وأكثر من هذا، فكذلك نجد الجاحظ له فى الأدب والفلسفة

(١) ليس هذا على ما نرى مما يعاب به الجاحظ، لأن هناك فرقاً بين المتكلم والعالم بالكلام الذى من مهمته أن يؤلف فى الكلام، وهل لنا أن نعيب المتنبى بانه لم يكتب فى الشعر وهو شاعر

(٢) هى المعروفة فى العربية بالرواسم ...

(١) الذي نراه أن كتاب المحاسن والأضداد منسوب للجاحظ وما نعتقد أن أحدا درس الجاحظ يستطيع أن يقول غير ذلك.

(٢) هذه فى الواقع مبالغة لا تتصل بالحقيقة فى شىء، ولست ادرى لماذا أثر الجاحظ فى ابن الرومى دون غيره من الشعراء وفيهم من كان يعاشره ويقاربه أكثر من ابن الرومى.

(٣) هى مذكورة فى البخلاء ص ٧٦ وما بعدها.

(٤) نجد هذه الرسالة كاملة فى جمع الجواهر للحصرى ص ١٦٦ وما بعدها.

والاجتماع الى آخر ماهو معروف عنه ؛ وكما أن فولتير لم يكن فى سخره وتهكمه يقف عند حد الفكاهة ولكنه كان يقصد الى كثير من الأغراض الشريفة ، فكذلك كان الجاحظ ، فالمشابهة قوية بين الرجلين (١)

ثم قال : فالجاحظ لاشك من الشخصيات الكبيرة ، وأهل العبقريات النادرة ، وهو حرى بالذكر والتكريم ، ونحن اذ نقوم له بهذا الأسبوع بمناسبة مرور أحد عشر قرنا على وفاته ، فإنما نحن نؤدى له بعض الواجب ، ولا أكتمكم ياسادة اذا قلت لكم انا فى حاجة كبيرة الى دراسة الجاحظ فى كتبه وآثاره دراسة وافية كما تجب الدراسة ، فاننا مع الأسف لا نعرف عنه الا ما هو شائع فى المجالس وما يسقط الينا من نوادره . وكلية الآداب اذا كانت قد فكرت فى اقامة هذا الأسبوع فانها أرادت أن تلفت الأذهان للعناية بالجاحظ ، وأن تنبه على وجوب دراسة تلك العبقرية الواسعة الشاملة

هكذا قال الدكتور الفاضل ، ولست أدرى اذا كانت كلية الآداب لا تعلم عن الجاحظ الا ما هو شائع فى المجالس وما يسقط من النوادر ، واذا كانت لم تقصد الا لفت الأذهان ، فمن الذى يكون عنده العلم بالجاحظ ، ومن الذى سيؤدى عنها هذا الحق للنقد والأدب

م . ف . ع

(١) لعل أستاذنا الزيات هو أول من نبه على الشبه بين الجاحظ وفولتير وإنه ليقول فى كتابه : إن الجاحظ هو فولتير الشرق .

العاطفـــة (١)

وهى تحفة من الشعر الوصفى الرائع المبتكر فى أغراضه ومعانيه

للشاعر العالم الأستاذ أحمد الزين

خلجاتٌ تهفو بقلب الشجىّ   هى سرُّ الحياة فى كلّ حيـ
هى والرُّوح فى فؤادك صِنْوا   نِ وفيض من عالم علْوىّ
هى ذكرى بعد المشيب وسلوى   فى اكتهالٍ وصبوة للفتىّ
ومُنًى للغــلام يهفو إليها   وحنان يحوط مهدَ الصبىّ
رافقتْ رحلة الحياة وآخت   نِضْوَ أسفارها إخاء الوفىّ
هى للقلب نعمةٌ أو شقاء   كم سعيدٍ بها وكم من شقىّ
رُبَّ من يبهر العيون رُواء   ناء من همها بداء خفىّ
ظاهر منه يخدع العينَ عمّا   ضَمن القلبُ من ضنى مطوىّ
من غرام مبرّحٍ أو فراقٍ   أو منًى عُوجلت بصوت النَّعىّ
باسم بين صَحبه فإذا يخـلو بكى شجوَه بدمعٍ شجىّ
وأخى منظر تراه فتنبُو الـعينُ عن منظر رَثيث زَرِىّ
يبصر الناس منه ما يبعث الرحـمة فى قلب شانىءٍ وصفىّ
ما دَرَوْا أنه على البؤس يحيا   بفؤادٍ خالٍ وبالٍ رخىّ
ملأت نفسَه السعادة حتى   لا يبـالى بمنظر أو بزىّ
نزَعاتُ النفوس فى كلّ قلب   ميّزَتْ بين ساخطٍ ورَضىّ
أسعدتْ آدماً وحوّاء حينا   ثم أشقتهما بإفك الغَوِىّ
ورث النسلُ عن أبيه ميُولا   لم تَدَعْه فى ظلّ عيش هنىّ
ونفوسا حيرَى تقلّبها الأهـواء مفتونة بكل طـلىّ
فهى بين الآمال تمرح نَشْوَى   ثم تصحو باليأس من كلّ شىّ
إن للعاطفات حُكما قويا   ظلّه عاصف بكلّ قوىّ
كم أذلّت جبارَ قوم ، وغلّت   من طليق ، وأسلَسَتْ من أبىّ
كم تولّى جهادَها فى قديم الدّهر نُصْح لعـالم ونبىّ
جاهَدَاها بالعقل حينا وحينا   سَخَّرَا بعضَهـا لقتل البَقىّ
وهى تقوَى مع الجهاد فوَيْل   للورَى من جهادِها الأبدى

(١) تستعمل العواطف فى معنى ميول النفس ونزعاتها استعمالا شائعا فى كلام أهل العصر وهى المراد وصفها فى هذه القصيدة .

يوم عابس
فى الربيـــع الباسم
للأستاذ محمود غنيم

يا صباح أغــبر الأديم — قد طعن الربيع فى الصميم
أمطاره قد شوهت آذاره — وريحه قد صوحت أزهاره
قد يظفر الباحث بالعنقاء — فيه ولا يرى ابنة السماء
فقلت: هل ضل صباح اليوم — أم أغرقت شمس الضحى فى النوم؟
ويحك يا أيتها الشمس اطلعى — يا أرض غيضى يا سماء أقلعى
وقفت حيران على الطريق — من غير ماء صرت كالغريق
الأرض تحتاج إلى عوّام — فكيف بالسير على الأقدام
من رام أن يسعى يمينا أيسرا — ومن مشى قدّام عاد القهقرى
لكننى شحذت غرب عزمى — وخضت موج ذلك الخضم
فلست بالنكس ولا الجبان — إذا دعا الداعى إلى الميدان
مشيت كالنشوان كل همى — أنى أحفظ اتزان جسمى
أسأل فى الطريق كل سابل — كأننى أسير فى المجاهل
دمع السماء فوق رأسى هام — والأرض من تحتى بحر طام
والماء قدران على منظارى — فسرت أهتدى بصوت جارى
وبعد أن كنت على «غيارى» — اخشى من الرشاش والغبار
فرطت فيه غاية التفريط — وصرت لا أخشى سوى السقوط
وعثرة اللسان فى المقال — دون عثار الرجل فى الأوحال
وبينما نحن نجوز حارة — إذ داهمتنا عندها سيارة
تنطلق انطلاق سهم مارق — سابحة فى خفة الزوارق
ينضح بالمياه جانباها — على ثياب ليس لى سواها
فطرزت إذ ذاك من ثيابى — ما أخطأته ريشة السحاب
فقلت: ويل للفقير العافى — من الغنى المترف المتلاف
قال رفيقى: دنت الدروس — وبعد خمس يضرب الناقوس
فقلت: مهلا أيها الرفيق — ما يفعل المدرس الغريق؟
قال: «أجيا» تبتغى و«سينا»؟ — أسرع فلست تجهل القانونا
قلت: قوانين البلاد جائرة — إن هى ساوتنا بأهل القاهرة
لا تذكر القانون فى الأرياف — قد وضع القانون فى الجفاف
حيث الشوارع التى لا تنضح — ولا بمكث الماء فيها تسمح
وهكذا نشرب نحن المطرا — وساكن المدن به ما شعرا
وكل ما فى الريف من محامد — يذهب فى أمطار يوم واحد

(كوم حماده) **محمود غنيم**

دافعات إلى الغواية أحيا — نا وحينا إلى الطريق السوى
كم يواسى بها الفقير وتنجيـ — ـه من البؤس رقة فى غنى
كم سقيم لولا ترفق آس — لقضى نحبه بداء دوى
ومشوق لولا التعلل أودى — يأسه بالدم الطهور الزكى
وجمال لولا العواطف ساوى الـ — ـقبح فى عقل أبله وذكى
فبها قدّر الجمال ولولا — ها لعاش الورى بقلب خلى
يا لنفس تعيش بين ميول — أتعبتها ما بين رشد وغى

احمد الزين

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الفضيلة الواهبة

— ١ —

وبعد أن ودع زارا مدينة (البقرة الملوّنة) التى شغف قلبه بها، شيعه عدد غفير ممن كانوا يدعون أنفسهم أتباعه حتى بلغوا إلى منعطف الطريق، فقال زارا إنه يريد متابعة سيره وحده. فودّعه أتباعه وقدموا إليه عصا قبضتها من ذهب بشكل أفعى ملتفة حول الشمس، فسر زارا من هذه الهدية واتكأ عليها قائلا لأتباعه:

— قولوا لى، لماذا أصبح الذهب ذا قيمة؟ أليس لأنه نادر ولا فائدة منه، ولأنه وديع فى لمعانه، ويبذل نفسه فى كل حين؟ لم يبلغ الذهب أسمى مراتب الأشياء القيمة إلا لأنه رمز لأسمى الفضائل، فعين الواهب برّاقة كالذهب، ووهج الذهب رسول سلام بين النيرين.

إن أسمى الفضائل نادرة ولا نفع منها، فهى تتوهج بنورها الهادىء، وليس بين الفضائل من يطاول فضيلة السخاء.

والحق، أننى شاعر برغبتكم، أيها الصحاب، فانكم تطمحون مثل طموحى إلى الفضيلة الواهبة، فأنتم تريدون أن تحولوا نفوسكم إلى هبات وعطايا، وإلا لكنتم أشبه بالهررة والذئاب. ولهذا تتعطشون إلى حشد جميع الكنوز فى أنفسكم فهى لن ترتوى من جمع الجواهر والكنوز لأنها ظامئة أبداً إلى العطاء. تجتذبون كل ماحولكم ليتسرب إلى داخلكم فينفجر ينبوعكم بها كأنها هبة من محبتكم.

إن المحبة السخية الواهبة تستحيل إلى لص يمد يده إلى جمع الأشياء القيمة، وما أرى هذه الأنانية إلا عملا صالحا مقدساً.

غير أن هنالك أنانية أخرى تدهورت إلى أدنى درجات المسكنة فى مجاعتها المتحكمة أبدا فيها، تلك هى الأنانية التى تطمح إلى السرقة فى كل آن، فهى أنانية المرض بل هى الأنانية المريضة، تحدج كل شىء بنظرات اللص وبنهم الجائع، فتزن لقمات الآكلين من أبناء النعمة وتدبُّ أبداً حول موائد الواهبين. وما مثل هذه الشهوة إلا عرض الداء الدفين ودليل الانحطاط الخفى، وما الطموح إلى السرقة بمثل هذه الأنانية إلا نزعة من نزعات الجسوم العليلة

أى شىء نراه أقبح الأشياء، أيها الأخوة، أفليس الانحطاط أقبحها؟ وهل يسعكم إلا أن تحكموا بانحطاط مجتمع لا أثر لروح السخاء والعطاء فيه.

إن سبيلنا يتجه الى الأعالى، وما نقصده إنما هو الارتقاء من نوع الى نوع، لذلك نرتعش عند ما نسمع الانحطاط يهتف قائلا: (لى كل شىء)

وهل روحنا الا رمز لجسدنا وهى تطمح الى الاعتلاء، وهل الصفات التى ندعوها فضيلة الا عبارة عن هذه الرموز عينها؟

إن الجسد يقطع مسافات التاريخ بكفاحه، ولكن ما تكون الروح من الجسد يا ترى إن لم تكن المزيع لكفاح الجسد وانتصاراته؟ وما الجسد الا الصوت، وما الروح الا الصدى الناجم عنه والتابع له. ليست الكلمات الموضوعة للدلالة على الخير والشر سوى رموز فهى تشير الى الأمور ولا تعبر عنها ولا يطلب المعرفة فيها ومنها الا المجانين

انتبهوا، أيها الاخوة، الى الزمن الذى يطمح فكركم فيه الى البيان بالرموز لأن فى هذا الحين تتكون الفضيلة فيكم، وفيه يبعث جسدكم ويتجه الى الأعالى مجتذبا عقلكم من سكونه ليدفع به الى مراحل الابداع حتى اذا ما سار عليها عرف قيمة الأشياء وأحب فاجاد فى كل أعماله

فى الزمن الذى يختلج فيه قلبكم تتكون فضيلتكم لأن هذا القلب يفيض باختلاجه كالنهر العظيم فيغمر القائمين على ضفافه بالبركة كما يهددهم بأشد الأخطار

إنما تنشا فضيلتكم عند ما يعجز المدح والذم عن بلوغ شعوركم، فتطمح إرادة الرجولة فيكم الى السيادة على كل شىء

إنما تنشأ فضيلتكم عند ما تحتقرون النعم والفراش الوثير وعندما لاتجدون راحة الا بعيدا عن مواطن الراحة

انما تنشا فضيلتكم عند ماتنصب ارادتكم على مقصد واحد، وعندما يصبح هذا التحول فى آلامكم ضرورة لا يسعكم التحول عنها

أفليس هذا شكلا جديداً للخير والشر؟ أفما تسمعون بهذا القول خرير الينبوع العميق الذى غربت مسالكه من قبل عنكم؟

إنها لفضيلة جديدة تمنح الانسان قوة وتبعث فيه عزماً، هذه الفكرة المتحكمة فى روح بلغت الحكمة لأنها شمس مذهبة التفت عليها أفعى الحكمة

— ٢ —

وصمت زارا مرسلا نظرات الحب الى أتباعه، ثم ارتفع صوته بنبرات جديدة قائلا: — أخلصوا للأرض، يا إخوتى، بكل قوى فضيلتكم. لتكن محبتكم الواهبة ولتكن معرفتكم خادمتين لروح الأرض، إنى اطلب هذا متوسلا

لا تدعوا فضيلتكم تنسلخ عن حقائق الأرض لتطير باجنحتها ضاربة أسوار الأبدية، ولكم ضلت من فضيلة من قبل على هذا السبيل

أرجعوا الفضيلة الضالة كما رجعت بها أنا الى مرتعها فى الأرض. عودوا بها الى الجسد والى الحياة لتنفخ فى الأرض روحها، روحا بشرية

لقد تاه العقل وتاهت الفضيلة فخدعتهما آلاف الأمور، ولما يزل هذا الجنون يتسلط على جسدنا حتى أصبح جزءا منه فتحول فيه الى ارادة

لقد قام العقل وقامت الفضيلة معه بتجارب عديدة فضلا على ألف سبيل؛ وهكذا أصبح الانسان عبارة عن تجارب ومحاولات ألصقت بنا الجهل والضلال. وليس مااستقر فينا من التجارب حكمة الأجيال فحسب، بل جنونها أيضا. ولكم يتعرض الوارثون إلى أخطار

إننا لم نزل نصارع جبار الصدف، ولم يزل العته سائداً على الانسانية حتى اليوم

ليكن عقلكم وفضيلتكم بمثابة روح للأرض وعقل لها. أيها الأخوة، فتتجدد بكم قيم الأشياء جميعها، من أجل هذا وجب عليكم أن تبدعوا

إن الجسد يطهر بالمعرفة، فيرتفع بمرانه على العلم، لأن من يطلب الحكمة يطهر جميع غرائزه، ومن ارتقى فقد أدخل المسرة الى نفسه

أعِنْ نفسك، أيها الطبيب، لتتمكن من إعانة مريضك. إن خير ما تبذله من معونة لهذا المريض هو أن يرى بعينه أنك قادر على شفاء نفسك

إن فى الأرض من السبل ما لم تطاها قدم بعد، فما اكثر مجاهلها وما اكثر خفاياها!!

اسهروا وانتبهوا أيها المنفردون لأن من المستقبل تهب نسمات سرية حاملة بشائر لا تقرع الا الآذان المرهفة

إنكم فى عزلة عن العالم، أيها المنفردون، ولكنكم ستصبحون شعباً فى آتى الزمان، ومنكم سيقوم الشعب المختار لأنكم اخترتم نفسكم اليوم. ومن هذا الشعب سيولد الانسان الكامل.

والحق أن الارض ستصبح يوماً مستشفى للأعلاء، فان فى نشرها عبيراً جديداً هو عبير الاخلاص والأمل الجديد.

— ٣ —

وسكت زارا كمن يقف عند كلمة تتلجلج فى فه، وبعد أن قلب عصاه طويلا بين يديه، أطلق صوته وقد تغيرت نبراته فقال:

— سأذهب وحدى الآن، أيها الصحاب، وأنتم أيضاً ستذهبون بعدى وحدكم لأننى هكذا أريد.

هذه نصيحتى إليكم، ابتعدوا عنى وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهى، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا، اخجلوا من انتسابكم إلىّ فلقد أكون لكم خادعاً.

على من يطلب الحكمة ألاّ يتعلّم محبة أعدائه فحسب بل عليه أيضا أن يتعلّم بغض أصدقائه. وما يعترف التلميذ اعترافا تاماً بفضل أستاذه إذا هو بقى أبداً له تلميذاً. لماذا لاتريدون أن تحطموا تاجى؟

إنكم تحوطوننى بالاجلال، ولكن ماهى الكارثة التى تتوقعونها من إعراضكم عنى، إن فى رفع الأنصاب لخطراً فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضى عليكم

تقولون إنكم تؤمنون بزارا، ولكن أية أهمية له؟

تقولون إنكم مؤمنون ، ولكن ما أهمية جميع المؤمنين ؟ ما كان أحد منكم فتش عن نفسه قبل أن وجدتمونى ، وهكذا جميع المؤمنين ، فليس الإيمان شيئاً عظيما . لذلك آمركم الآن أن تضيعونى لتجدوا أنفسكم ، ولن اعود إليكم إلا عندما تكونون جحدتمونى جميعكم .

والحق ، يا إخوتى ، أنى فى ذلك الحين ، سأفتش عن خرافى بعين أخرى فأبذل لكم حباً غير هذا الحب

سيأتى يوم تصيرون فيه أصحاباً لى إذا ماوحد بينكم الامل الواحد ، عندئذ سارغب فى الإقامة بينكم للمرة الثالثة للاحتفاء بانوار الهاجرة العظمى .

وستبلغ الشمس الهاجرة عند مايصل الناس إلى منتصف طريقهم بين الحيوان والانسان الكامل ، وعند ما يرون أملهم الأسمى على منتهى السبيل الذى يقودهم إلى الفجر الجديد

فى ذلك الحين يتوارى من يسير إلى الجهة الثانية وهو يبارك نفسه إذ ترتفع شمس معرفته لتتكبد الهاجرة

لقد مات جميع الآلهة ، فلم يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان الكامل . فلتكن هذه إرادتنا الأخيرة عند ماتبلغ الشمس الهاجرة .

هكذا تكلم زارا . . .

حديث الأزهار

للكاتب الفرنسى ألفونس كار

السرو

كنت ولداً لأول مرة جلست فيها تحت ظلك ياشجرة السرو حين كانت أسراب الحمام تفتح أجنحتها للريح فاتبعها من روحى بأطيار تشق الأثير متجهة نحو السماء .

وهأنذا أتقدم اليوم ببطء تحت أغصانك لأطرح على الأرض جسدى المتعب وقد وقفت روحى عن تباع الأطيار فى اعتلائها . لقد صار الولد شيخاً .

لم تزل تظللنى أغصانك أيتها السروة ، وقد أصبح جذعك متكأً ليدى المرتجفة ، فأقف مستنداً إليه وأجيل أبصارى بين القبور حيث يرقد أجدادى وحيث أرقد أنا غدا .

ما أجملك ، أيتها السروة ، وأنت متجهة إلى ما فوق كصلاة المؤمنين ، وحينما يمر الهواء بين أغصانك يخيل إلى المستغرق تحت ظلالك أنه يسمع ما تسر اليه قلوب أحبابه وقد استحالت إلى تراب فى القبور .

لقد مرت على صداقتنا السنون أيتها السروة الهرمة ، ومنذ أول عهدى بك لم أزل أتفيأ غصونك لأناجيك مفكراً فى زوال الأيام . أنت أعرف منى بحالى ، فأنا أستشهدك على إيمانى بالخلود واحتقارى لكل مرتجف أمام الفناء .

أحبك أيتها الأغصان القاتمة . أحبك يا زهرة المدافن لأنك رمز الراحة والسكون لمن أتعبته حركة الحياة

إلى متى تنطلق روحى من أسرها فتجول فى الفضاء الفسيح الغير المتناهى كما تجول أسراب الحمام فى آفاقها ، فيرتفع مثلها فوق المآذن إلى السحاب إلى ما وراء كل منظور

هنالك السكون بالارتقاء إلى الأوج الأعلى ، حيث لاشقاء ولا خداع . تقدم يا ملاك الموت وأطرق الباب فان وراءه روحاً أهرمها الدهر وهى مستعدة للرحيل

أيها الهواء الهاب على أغصان السروة القاتمة كأسرار الأبد ، كل يوم أنتظر منك مناجاتى بساعة موتى وأنت فى أنينك ساكت عنها لأنها فى علم الله .

ف . ف

البريد الأدبي

الأزهر والجامعة المصرية في عيد جامعة أثينا

في هذا الأسبوع تحتفل جامعة أثينا بعيدها المئوي ؛ فقد دعيت جامعتنا المصرية ودعيت الجامعة الأزهرية لشهود هذا الاحتفال العلمي ، فلبتا الدعوة ؛ وانتدبت الجامعة المصرية مديرها الأستاذ لطفي السيد باشا لتمثيلها ، وانتدبت الجامعة الأزهرية أحد أساتذة التفتيش . ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن الأزهر قد بدأ يتخذ مكانته في هذه المهرجانات العلمية الدولية بعد أن لبث دهرا بعيدا عنها ، وهذه هي المرة الثالثة أو الرابعة التي يوفد فيها ممثليه إلى الخارج للاشتراك فيها . وقد نشأت جامعة أثينا منذ مائة عام (سنة ١٨٣٧) معهدا متواضعا على سفح الأكروبول ، وكان قيامها من نفثات الاستقلال الذي كسبته اليونان بدمائها قبل ذلك بأعوام قلائل ؛ بيد أنها قطعت خلال هذه المائة العام أشواطا عظيمة ، فأضحت جامعة كبرى تتمتع بهيبة علمية لا بأس بها

وسيشهد عيد الجامعة الأثينية ممثلو نحو خمسمائة جامعة ومعهد ، وسيفتتح الاحتفال الرسمي ملك اليونان ويلقي خطاباً في هذه المناسبة وتمتد حفلات العيد مدى أسبوع من ١٧ ابريل الجاري إلى ٢٢ منه ؛ وقد وضع برنامج حافل يشتمل على خطب وأحاديث علمية مختلفة وعلى حفلات ومآدب اجتماعية ، ونزهات ورياضات خلوية مختلفة ؛ وسيلقي ممثل الجامعة المصرية وممثل الأزهر - كل كلمته في هذا المهرجان

ذكرى مكتشف البلهارسيا :

تستعد الجمعية الطبية المصرية للاحتفال في الشهر القادم بذكرى العلامة الألماني تيودور بلهارس لمناسبة مرور خمسة وسبعين عاما على وفاته : وقد اقترن اسم هذا العلامة إلى الأبد بأحد الأمراض المصرية المتوطنة وهو « البلهارسيا » التي ما زالت تفتك بمئات ألوف من المصريين ؛ وكان بلهارس أستاذاً بمدرسة الطب المصرية ، فعكف أعواماً على دراسة جراثيم الأمراض المتوطنة ، ووفق بعد مباحث طويلة إلى اكتشاف ديدان مرض البلهارسيا وبعض الجراثيم والطفيليات المتوطنة الأخرى ، وقد رأت الجمعية الطبية المصرية أن تقوم بواجب الوفاء لهذا العلامة الذي خدم الطب والعلم في مصر ، فتكرم ذكراه في حفلة جامعة تقيمها بكلية الطب في مساء يوم الأحد ٩ مايو القادم ، وسيلقي بعض حضرات الأساتذة والأطباء المصريين كلمات في ذكرى العلامة الراحل ، وفي حياته واكتشافاته الطبية ، ومن المحقق أن دوائر العلم الألماني ستحتفي بهذه الذكرى أيما احتفاء ، فاشتراك الجمعية الطبية المصرية في هذا التكريم تصرف محمود وعنوان على التضامن العلمي الذي لا يعرف واجباً ولا حدوداً

جوائز مدينة باريس الأدبية :

من أنباء فرنسا الأدبية أن مجلس باريس البلدي ، قد قرر إجابته لاقتراح مسيو رنيه جيوبن أحد أعضائه أن ينشيء جائزة أدبية قدرها خمسة وعشرون ألف فرنك (نحو ٢٣٠ جنيه) تسمى « جائزة مدينة باريس الكبرى » ، وتتولى منحها هيئة محكمين من الكتاب وأعضاء المجلس البلدي ؛ وتمنح عاما بعد عام لكبير من الكتاب أو الشعراء أو المفكرين . فتمنح في العام الأول لكاتب « روائي » مثلا تحوز مؤلفاته قصب السبق ؛ ثم تمنح في العام التالي « لشاعر » وفي العام الثالث « لكاتب وصفي أو ناقد » ، وفي العام الرابع « لمؤرخ أو فيلسوف » وهكذا ، ويمكن منح هذه الجائزة عن مؤلف بعينه أو عن جميع التآليف مجتمعة ، كذلك قرر المجلس البلدي أن يرفع الإعانة المقررة « لجمعية الأدباء » من عشرين إلى خمسين ألف فرنك في العام

وهذه الجائزة الأدبية التي تقررها مدينة باريس ليست إلا واحدة من عشرات بل من مئات من الجوائز الأدبية

المختلفة التى تقررها الهيئات الرسمية وغير الرسمية من جمعيات علمية وأدبية وصحف وغيرها لتشجيع العلوم والآداب، ورعاية الحركة الفكرية وإذكاء همم الكتاب والأدباء والفنانين، فأين جوائزنا نحن؟ ومتى تفكر هيئاتنا الرسمية وغير الرسمية فى ترتيب الجوائز الأدبية الموفرة التى يمكن أن تسبغ بهيبتها الأدبية على أدبائنا وكتابنا شرفاً يتسابقون إليه، كما تسبغ بقيمتها المادية على جهودهم نوعاً من المؤازرة والتشجيع؟

كتاب عن الرحلات القطبية

صدر أخيرا بالانكليزية كتاب عن المكتشف الامريكى الشهير روبرت بيرى وعن رحلاته القطبية المختلفة عنوانه: « Peary »، ومؤلفه المؤرخ الامريكى هويز W. H. Hobbs وقد اشتهر هويز منذ بعيد بكتاباته عن القطب والرحلات القطبية، فهو من هذه الوجهة أستاذ موضوعه؛ وهو يسرد فى كتابه الجديد رحلات بيرى القطبية منذ رحلته الاولى الى الجزيرة الخضراء فى سنة ١٨٨٦، وهى السنة التى اكتشف فيها رأس الثلج الشهير. وبيرى من أشهر المكتشفين والرحل فى عصرنا؛ وكان مولده فى ولاية بنسلفانيا سنة ١٨٥٦؛ والتحق بالبحرية الامريكية سنة ١٨٨١؛ وفى سنة ١٨٨٦، رحل الى الأرض الخضراء رحلته الاولى؛ وفى سنة ١٨٩١ رحل اليها للمرة الثانية وقطع الجزيرة من جنوبها الى شمالها على ظهر زاحفة ثلجية، وأنفق فى رحلته ثلاثة عشر شهرا واستطاع أن يتحقق من أن الأرض الخضراء جزيرة تحدها الثلوج من الشمال كما تحدها من الجنوب. ثم قام برحلته الثالثة الى الارض الخضراء فى سنة ١٨٩٣ ومكث فى الجزيرة نحو أربعة أعوام؛ وكان بيرى يستعين فى رحلاته برجال «الاسكيمو» واليه يرجع الفضل فى دراسة خواص هذا الجنس المدهش الذى يعيش بين الجليد الخالد. وفى سنة ١٨٩٨ قام بيرى برحلة جديدة على ظهر الباخرة القطبية «روزفلت» حول الجزيرة الخضراء من الشمال والشرق، ولبث بيرى طول حياته يتطلع إلى القطب واكتشافه؛ وفى سنة ١٩٠٥ قام بأعظم رحلاته فى اتجاه القطب الشمالى، ووصل فى سنة ١٩٠٨ على ظهر السفينة القطبية روزفلت إلى رأس شريدان، وهى أبعد نقطة وصل إليها إنسان، وقضى الشتاء فى تلك الوهاد الثلجية؛

وفى ابريل سنة ١٩٠٩، وصل بيرى إلى القطب الشمالى وحقق بذلك أمنية حياته؛ وكتب بيرى عدة كتب خلابة عن رحلاته؛ ورقى إلى رتبة الأميرال فى سنة ١٩١١، وتوفى فى واشنطون سنة ١٩١٩

وقد استعرض مستر هويز فى كتابه الجديد حياة بيرى ورحلاته بأسلوب شائق، واستخلصها من كتبه ومذكراته ومعلوماته الخاصة، فجاء من أبدع الكتب التى صدرت عن الرحلات القطبية

قضية أدبية غريبة

رفعت إلى محكمة نيويورك العليا قضية أدبية غريبة تشغل دوائر النشر والأدب تدور حول هذا السؤال «هل يحق للعالم الذى أضحت حياته العامة ملكا للتاريخ أن يتمسك بإخفاء بعض حقائق فى حياته لاعتبارات خاصة؟»، وخلاصة القضية أن العلامة الباثولوجى الأشهر الدكتور كارل لاندشتاينر الذى يحمل جائزة نوبل للعلوم، والذى يشغل مركزا هاما فى معهد روكفلر للمباحث الطبية رفع قضية على شركة نشر قاموس الأعلام whos who يطلب فيها الحكم على الشركة بان تمتنع عن نشر صورته وترجمته فى قسم «أعلام يهود أمريكا» فى طبعتها الجديدة، وأن تدفع له عشرين ألف جنيه تعويضا عما لحقه من الضرر المحقق فى حياته الخاصة وفى مهنته

وقد ولد الدكتور لاندشتاينر فى النمسا من أبوين يهوديين ولكنه نبذ اليهودية واعتنق الكثلكة فى سنة ١٨٩٠ وتزوج من سيدة كاثوليكية، ويقول محاميه انه، أى الدكتور، يعيش منذ خمسين عاما فى وسط مسيحى، ويغضى عن علائقه الدينية القديمة؛ وحق الخصوصية هنا قائم ويجب أن يحمى. ثم إن للمدعى ولداً فى التاسعة عشرة من عمره لايعرف شيئا عن أصل والده اليهودى، فاذا وقف على هذه الحقيقة فى القاموس المشار إليه فانه يصطدم لذلك وقد يعرضه للذلة فى الوسط المسيحى الذى يعيش فيه

ويقول الناشرون إن قاموس الاعلام هذا عمل تاريخى جليل، وإن كل مايتعلق بحياة المدعى من الوقائع والحقائق إنما هو ملك للتاريخ وإن نشرها لاعدوان فيه على حقوقه الخاصة

وهكذا تجد المحكمة العليا نفسها أمام مأزق دقيق

النقد

اسماعيل المفترى عليه

تأليف القاضى بيير كربتيس

وترجمة الأستاذ فؤاد صروف

لأستاذ كبير

المستر بيير كربتيس القاضى السابق بالمحاكم المختلطة مؤرخ محقق، كتب فى تاريخ مصر كتبا قيمة اعتمد فى إخراجها على مصادر ووثائق أكثرها لم ينشر بعد، رجع إليها فى دار المحفوظات المصرية بتصريح من جلالة الملك الراحل.

ويقول لنا الأستاذ صروف إنه يوشك أن يصدر فى تاريخ مصر كتابا آخر. وليس القاضى كربتيس أول رجال الولايات المتحدة الذين كتبوا عن مصر، بل إن للكثيرين منهم على التاريخ المصرى فضلا كبيرا. ويمتاز هؤلاء المؤرخون ببعدهم عن التأثر بالمصالح والعواطف السياسية، ولذلك تراهم ينظرون إلى الحقائق نظرة المحايد المحقق الذى يبحث ويتحرى ولا يهمه بعد ذلك أجاءت نتيجة البحث وفق ما يحب أم لم تجىء؛ ومن أجل ذلك كانت كتبهم جديرة بأن تلقى من الكتاب المصريين المؤلفين منهم والمترجمين ما تستحقه من العناية.

ولكن يؤسفنا أن نرى هؤلاء المؤلفين والمترجمين لا يعتمدون إلا على مصادر من نوع واحد، ويغفلون المصادر الأمريكية مع أنها من أهم المراجع وأصدقها، ومع أن أصحابها بحكم مراكزهم كانوا ملمين بالشئون المصرية وكان لبعضهم يد فى تصريفها

لذلك اغتبطنا حين أخرج الأستاذ صروف ترجمته لكتاب إسماعيل الخديو المفترى عليه، ونرجو أن نرى فى القريب ترجمة لكتاب «ابراهيم» وأخرى لكتاب «فارمن» وثالثة «لماكون» ورابعة «لإدون ده ليون»، وغيرهم من الكتاب المنصفين

وهذا المقام الذى نضع فيه المؤرخين الأمريكيين هو الذى حملنا على قراءة الترجمة العربية لكتاب كربتيس بعد أن قرأنا الأصل الانجليزى منذ عامين أو أكثر

ومن أجل هذا أيضا رأينا من الواجب علينا أن نبدى رأينا فى الترجمة لأن موضع الكتاب جليل، يفتح فى التاريخ المصرى فتحا جديداً. ولأن المؤلف قاض نزيه وكاتب كبير، ولأن المترجم من الكتاب المعروفين، ولأن دار النشر الحديث قد بذلت فى إخراجه من العناية ما يجعلها جديرة بالثناء العظيم

وقبل أن نبدأ بالنظر فى هذا الكتاب يحسن بنا أن نضع أمام القراء المبادئ الأساسية التى سنسترشد بها فى نقدنا، والتى نرى لزاما على كل مترجم أن يراعيها إذا شاء أن تكون ترجمته دقيقة أمينة سليمة

(١) فأول ما يجب على المترجم أن يكون ملما بموضوع الكتاب الذى يترجمه، وإلا دفع فى الخطأ من حيث لا يدرى: ذلك بأن لكل علم ولكل فرع من علم مصطلحاته الخاصة التى يجب أن يعرفها المؤلف والمترجم. ويصدق هذا على التاريخ كما يصدق على العلوم الطبيعية والرياضية. ففى التاريخ معان وضعت لها مصطلحات اتفق عليها، وأصبح المؤلفون والمترجمون فى غير حاجة إلى اختراع ألفاظ جديدة للتعبير عنها، بل أصبح من واجبهم أن يتقيدوا بها إن وجدت، وإلا وقعوا فى الفوضى والاضطراب. وقد توجد فى الكتاب المترجم أغلاط مطبعية وغير مطبعية، وأسماء الأشخاص وأماكن محرفة أو غير محرفة، ولا يستطيع المترجم أن يثبتها على حقيقتها إلا إذا كان عارفا بها أو كان فى استطاعته الرجوع إلى المصادر التاريخية التى تمكنه من تحقيقها. وتعريب الأسماء من اللغة الانجليزية يحتاج إلى

كثير من العلم والدقة ، وإلا خرج الكتاب مشوها بعيدا عن التحقيق التاريخي قليل القيمة غير مطابق للأصل المترجم

(٢) كذلك يجب أن تكون الترجمة كالأصل من غير زيادة ولا نقص ، ولسنا نرمى بذلك إلى الترجمة الحرفية التي يتقيد صاحبها بالألفاظ فيحتم على نفسه أن يأتي لكل لفظ بما يقابله ولكل عبارة بمثلها مساوية لها فى الطول وعدد الكلمات : ليس هذا هو المقصود بل المقصود أن يعبر المترجم عن جميع المعانى الواردة فى الأصل المترجم بلغة سليمة وأسلوب صحيح ، والأمانة فى الترجمة تحتم على المترجم أن لا يحذف من الأصل شيئاً إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً ، ويجمل به مع ذلك أن يذكر سبب هذا الحذف فى هامش الكتاب أو فى المقدمة إن شاء .

(٣) ويتفرع من هذا مبدأ ثالث عظيم الأهمية يتوقف عليه جمال الترجمة وسلاسة الأسلوب . ذلك أن اللغة الانجليزية تكتب جملا منفصلة قليلة الروابط اللفظية مع أن الفقرة الطويلة تعبر فى الغالب عن معنى واحد شامل مرتبط الاجزاء متسلسل الجمل . والفقرات كذلك مرتبط بعضها ببعض . لكن هذه الروابط روابط ملحوظة غير ملفوظة فى كثير من الاحيان ، ويتوقف إدراك المعنى على فهم هذه الروابط بين الجمل والفقرات ، وتختلف اللغة العربية فى ذلك عن اللغة الانجليزية ، فالعبارة العربية تحتاج إلى الروابط اللفظية بين الجمل ، ومتانة الأسلوب تستدعى حسن الانتقال من فقرة إلى فقرة ، وإلا كان هذا الاسلوب مفككا غير فصيح وبعيدا عن الذوق العربى ، وكل خطأ فى فهم هذه الروابط والتعبير عنها يفسد الاسلوب ويغير المعنى . وربما كان ذلك أصعب شىء فى الترجمة ، وهو الذى يجعل الكتب المترجمة ركيكة الأسلوب أجنبية فى حقيقتها ، وإن كتبت بألفاظ عربية . والمترجم القدير هو الذى تقرأ كتابه فلا تشعر أنه مترجم ، بل تحس بأنك تقرأ كتابا عربياً فصيحاً

(٤) وثمة مسألة أخرى ترتبط بالمسألة السابقة وهى الأمثال والتشبيهات ونحوها ، وهل تترجم بلفظها أو بمعناها . ونحن نرى أن يترجم معناها ، واللغة العربية غنية بالأمثال والحكم والتشبيهات ، ولا يعجز الأديب المطلع عن العثور لكل تشبيه أو مثل انجليزى على مايقابله فى اللغة العربية ، فاذا لم يجده فلا ضير عليه أن يترجمه بشرط ألا تكون الترجمة عسرة الفهم ولا بعيدة عن الذوق العربى السليم

(٥) وكثيراً مايقصد المؤلف أن يؤكد بعض المعانى تأكيداً خاصاً لأهميتها فى نظره ، وكثيراً مايسبغ على بعض المعانى ثوبا روائياً أو شعرياً يقتضيه غرضه ، وواجب المترجم القدير فى مثل هذه الاحوال ألا يغفل عن ذلك فى الترجمة ليكون أميناً على معانى المؤلف وروحه معا

تلك أهم المبادىء التى سنبنى عليها نقدنا لترجمة الأستاذ فؤاد صروف وبقدر انطباقها على الترجمة يكون حكمنا عليها وموعدنا بذلك العدد القادم إن شاء الله

الغنيمى

فى الكتب

المطالعة التاريخية للمدارس الابتدائية

للأساتذة : محمد رفعت بك وزكي على ومحمد مصطفى زيادة
وأحمد نجيب هاشم والسيد أحمد خليل

للأستاذ أحمد الشايب

هذه أول مرة فى تاريخ الحيـاة المدرسية المصرية يعرض فيها التاريخ على التلاميذ عرضاعلميا فنيا جميلا ، يحاول به الأساتذة أن يصلوا بين الأطفال وبين العصور الأولى أقوى صلة وأجملها ، وأنفعها ، وأحبها إلى هذه النفوس الغضة الحديثة العهد بالحياة . وما ظنك بدرس فى التاريخ - أو كتاب فى التاريخ - يشرك الطفل فى بناء الماضى درسا ، وقصصا ، وعملا ، ومتعة ، فيستمع به الناشىء إلى أحاديث الملوك السابقين ، ويرى آثارهم مصورة ، ويدخل إلى منازلهم ، ويلعب مع أطفالهم ، ويصنع مثل لعبهم ، ويتنقل بين الزراع ، والصناع ، والتجار ، فى المزارع ، والمصانع ، والمتاجر ، لا مشاهدا ومتحدثا فقط ، بل مشاركا ، مفيدا من المـاضى خير الفضائل وأنبل الصفات . ذلك ، وأكثر منه ، وخير منـه ، هو ما قام به هؤلاء الأساتذة الأفاضل مؤلفو كتاب المطالعة التاريخية للمدارس الابتدائية . وقد قرأت جزءه الأول الذى وضع فى حياة المصريين القدماء ، فإذا به يصور الخطوة القديمة لحيـاة مصر والمصريين ، ولكنها مع ذلك خطوة واضحة ، بهية ، استطاع واصفوها محتالين متلطفين أن يمزجوها بخطا الطفولة ومواهبها حتى لقد خشيت أن يستحيل أطفالنا ، بهذا الأسلوب الفنى الجميل ، أبناء فراعنة ، وأطفالا تاريخيين .

لنترك الباحثين يختلفون حول التاريخ ، أعلم هو أم فن ، ولنقف عند طور الطفولة وما يلائمه موضوعا وشكلا ، فلن نرى - فيما نعرف - خيرا من هذا الكتيب ولا أصلح منه لأبناء المدرسة الابتدائية ، سواء فى ذلك اختيار المعلومات ، وتنوعها ، وشمولها ، وطريقة عرضها ، وسهولة أسلوبها ، وما أعقبها من التمارين العملية . . وأما الرسوم والأشكال فهى وحدها مدرسة فى إيضاحها وفى جمالها الذى يفتن الأطفال ، ويبهر الأبصار .

عرف المؤلفون ، أو المربون ، طبيعة الطفولة فكان تاريخهم قصصا ، سهلا ، مشوقا ، متصلا بحياة التلاميذ وما يألفون ، وعرفوا غرائز البنين وشغفها بالعمل ، فحولوا الدرس من هذا الشكل النظرى إلى تمارين عملية تسد هذه الحاجة الغرزية ، ولم يقفوا عند هذا المران التقليدى حتى عمدوا إلى قوة الخيال ، فاعتمدوا عليها لتجسيم الصور الوصفية ، وكلفوا التلاميذ من ذلك قسطا حسنا ينزع بهم إلى هذه العادات العملية المحققة ؛ ولحظوا فتنة الأولاد باللعب الصغيرة ، والمناظر البهيجة ، فيسروا لهم الحصول على العرائس والكرات ، وزخرفوا صفحات الكتاب بأجمل ما ترك الفراعنة من صور وأشكال .

وبعد هذا ينتقلون بالطفل بين جوانب الحيـاة القديمة ، آباء عاطفين وأصدقاء مخلصين ، فهم به اليوم فى النوادى الرياضية يرونه المصارعة . وحمل الأثقال والترامى بالكرات ، وغدا يأخذون بيده إلى المدرسة فيشهد زملاءه لاعبين كاتبين حاسبين ، وبعد غد يعرضون عليه الجيش المصرى بأسلحته وعرباته وسفنه يفتح فى الأقطار ، ويكون الامبراطورية القديمة . ثم يدخلون معه منزلا لاحدى الأسر الراقية ليشهد مثل النظام ، والطاعة ، والألفة ، وحسن الآداب . وقد يحملونه على سفن الملكة حتشبسوت إلى بلاد الصومال بافريقية ليعود بالأشجار العطرية ، والحيوانات العجيبة . . وهكذا لا يتركون ناحية من هذه البيئة الفرعونية حتى يغرقوه فيها سامعا ، مبصرا ، عاملا ، خائلا كأنه يشترك فى تمثيل رواية أو حفلة ألعاب .

ليس فى الكتاب هذه العبارات الجوفاء ، والمبالغات الممقوتة التى يلجأ إليها كتاب التاريخ للأطفال حين تعوزهم المادة الممدودة ، وبراعة الأسلوب . ولقد سررت حين رأيت (خوفو) ينتهز فرصة فراغ المصريين من الأعمال الزراعية أيام فيض النيل فيملأ فراغهم وجيوبهم ببناء الهرم الأكبر ، كما سررت بهذه الناحية التهذيبية التى تصل بالأبناء إلى غاية الدرس التاريخى ، وتحملهم على التعلق بأسباب المجد والفضيلة ، فهذا الملك أحبته الرعية لاخلاصه فى خدمتها ، والاسكندر المقدونى بكرت إليه أمارات النجابة ، فكان ملكا كبيرا ، وهؤلاء الرسل أدوا رسالة الانسانية وصبروا فى سبيلها فكانوا البررة الكرام ، وهذه مصر المحبوبة العزيزة أصبحت بفضل هذا الماضى المجيد محج السائحين والباحثين من كل الأقطار .

أما بعد ، فلو كان لى طفل أو تلميذ فى مدرسة ابتدائية ، لما تركته ليلة دون أن أتدارس معه فى هذا الكتاب ، وأفيض على نفسه منـه معرفة ، وتسلية وتهذيبا . . . ولعل التلاميذ قد ظفروا من هـذا الكتاب بحيـاة مدرسية حديثة حقا ، تجمع بين العلم والفن الجميل .

احمد الشايب